

دكتور
عبد الفتاح عاشور

ذ التفسیر وعلوم القرآن — المساعد
معة الأزهر ، والجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

الوصايا العشر

دراسة - مقارنة - لآيات من أواخر سورة الأنعام

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من بعد هؤلاء المهلكين قرناً آخر فما خربت الأرض بذهابهم .

ولم لا ينزل بهم العذاب وهم متعتون لا يطلبون الهداية : إنهم لا يصدقون ما معك من الوحي ولو نزل مكتوباً في قرطاس ولمسوه بأيديهم فسيقولون : إن هذا إلا سحر مبين . . . وإنهم يطلبون المحال يطلبون نزول الملك مصداقاً لك فيما تقول — والملك إنما ينزل — حينئذ لتدميرهم وإهلاكهم . . . والملك إذا نزل سيكون في صورة رجل والاشكال — إذن — قائم والعداد لا يفيد — وإذا كان مطلبهم هذا استهزاء فلقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون . ومن واجب هؤلاء أن توجه أنظارهم إلى السير في الأرض ليعتبروا بما آل إليه حال المكذبين وأن تلقفهم إلى عظمة القدرة وجلال الإله الخالق : « قل لمن مافي السموات والأرض ؟ قل لله كتب على نفسه الرحمة » ومن رحمته بهم أنه لم يعاجلهم بالعقوبة إنما يؤخرهم ليوم القيامة الذي يخسر فيه هؤلاء أنفسهم وليس بعد خسارة أنفسهم شيء يخسرونه ؟ !

والله سبحانه مالك المكان ومالك الزمان وما في المكان والزمان : « وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم » .

وعن طريق الإيحاء يرهبهم ويخوفهم ويدهم على الإله الحق في هذا الوجود : فيأمر رسوله أن يسألهم : قل أغير الله أتخذوليا ؟ فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » ومن كان هذا شأنه وجب الاستسلام له وتوحيده فلا يشرك به شيء . وعصيان هذا الإله خطر يجب أن يخاف منه رسول الله ﷺ . ويوم القيامة وما فيه من أهوال يوم شديد رهيب « من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز العظيم » .

والخوف — إذن — من الله وحده فهو الضار والنافع ولا يمتلك أحد سواه كشف ضر أو جلب نفع فهو الإله المتصرف القادر القاهر فوق عباده فهو الحكمة التي تدبر والخيرة التي تصرف كل ما في هذا العالم ومن فيه لا يغيب عنها شيء ولا يعجزها شيء . .

وتبدأ السورة جولة أخرى في ميدان التوحيد : عن طريق الإشهاد ويختار الرسول عليه السلام . ربه شهيداً بينه وبين المشركين . . وإذا شهدوا أن مع الله آلهة أخرى فهو مكلف أن لا يشهد وإنما بين الحقيقة الجلية في غير موارد : قل إنما هو إله واحد وإني بريء مما تشركون . فشهادة الله أولاً وشهادة الرسول ثانياً وتأتي شهادة أهل الكتاب الذين يعرفون هذا الرسول بنعته وصفته في كتبهم كما يعرفون أبناءهم بملاحمهم وسيامهم . تلك الشهادات مجتمعة على وحدانية الله وصدق رسوله ومن لم يؤمن بهذا فقد خسر نفسه وافتري على الله الكذب إذا عدم الإيمان مع وضوح الدليل والتكذيب بآيات الله مع نصاعة الحجة ظلم لا يعدله ظلم . وسوف يحشر الله هؤلاء الظالمين جميعاً فيسألهم هذا السؤال المخزي عن شركائهم : أين هم ؟ فيحلفون أنهم ما كانوا مشركين . وهذا موقف يستدعى العجب فلننظر مع رسولنا الحبيب كذبيهم على أنفسهم وغياب آلهتهم عنهم !!!

ويعود القرآن ليبين حالهم في الدنيا وهم يستمعون إلى الرسول ولكن الله أعمى قلوبهم وأصم آذانهم لسوء عملهم فهم لذلك لا يؤمنون أبداً ويجادلونك دائماً ويدعون أن أنزل عليك أساطير الأولين بل ويبعدون أنفسهم عن طريق الله فيهلكونها وسوف يتحسرون على هذا العمر الضائع في الضلال يوم يراهم وهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين وهنا يظهر لهم ما كانوا يخفون من قبل وهم كاذبون ادعائهم فلوردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وقضية أخرى يراها رسولنا كما يراها كل إنسان في مشهد ماموس كأنه حاضر لدينا لا أنه سيكون : إنكار الكفار للبعث وادعائهم أن الدنيا هي حياتهم . والقرآن لا يناقشهم في صحة هذا القول إنما يرسم صورة لخزيهم حين يتولى الله استجوابهم ، أليس هذا بالحق ؟ ؟ ويكون جوابهم : بلى وربنا فيكون القرار : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . . وهنا تكون الخسارة أيضاً ظاهرة فحالمهم وهم يتحسرون على تفریطهم ويحملون ذنوبهم على ظهورهم تدعو إلى الخزي والأسف . وهل الحياة الدنيا إلا لعب وهو حين تنفصل عن الآخرة ، وتوضع في ميزانها الصحيح ؟ ولكن الآخرة خير للمتقين . وليتنا

تفعل هذا الأمر فهو يحتاج إلى تعقل وموازنة ليكون الاختيار الصحيح .

ثم يلتفت السياق بعد هذه الجولات ليسلى رسول الله ﷺ : « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ويطمئنه إلى نصره فكثير من الرسل قد كذبت ولسكنهم صبروا على الإيذاء حتى أتاهم نصر الله . وهذه سنته في خلقه لا تتبدل ولا تتغير . أما أنت فلا تحزن عليهم فما عليك إلا البلاغ .

وهنا يشتد الله في عتابه لرسوله لحزبه على عدم هداية قومه فيقول له : « وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبغى تفقا في الأرض أو سائماً في السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكون من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون » فالاستجابة دليل حياة والإعراض دليل موت . وما يحجب إنسان نفسه عن الإيمان إلا وفي نفسه من الموت شيء وفي كيانه من الفساد صورة . وها هم الكفار يطلبون معجزة خارقة وهم في الواقع عمى . فهذا القرآن جاء ليخاطب الأذراك البشرى بعد أن بلغ نضجه وكاله . وهل هناك آية أعظم من تلك الآيات الماثورة في السكون تلك الدواب وهذه الطيور : كل جنس منها عالم مستقل يسير بنظام رتب ما فرط الله فيه من شيء ?? .

ومع هذا الوضوح فالكافرون صم وبكم يعيدشون في الظلمات لإبعادهم أنفسهم عن مصدر النور وتلك إرادة الله « من يشأ يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم »

ثم هؤلاء الكفار ماذا يصنعون إذا وقع بهم العذاب أو جاءتهم الساعة ?? هل يشركون بالله شيئاً ?? إنهم يدعونه وحده فيكشف عنهم الضر بمشيئته وتلك الصورة تتكرر مع كل رسول يذكر قومه ربهم في حالة البأساء وينسونه في حالة النعماء فيقطع الله دابرهم ويطهر الأرض من رجس الظالمين . وليتصور كل مكذب حاله وقد سلب الله منه السمع والبصر وختم على قلبه . فهل يستطيع أحد ود شيء من ذلك عليه ?? لا يستطيع هذا إلا الإله القادر . ومع هذا

البيان الجلي الواضح فالمشركون يعرضون عن الحق ويأبونه . فلينتظروا مرة أخرى لحالهم وقد أتاهم عذاب الله بغتة أو جهرة فهل يهلك إلا القوم الظالمون؟

هكذا قضت سنة الله : يرسل الرسل فمن آمن برسله فلا يخاف ولا يحزن ومن كذب نزل به العذاب لنفسه وخروجه عن دين الله .

وهذه دعوة الاسلام وهذا رسولها لا تبغى مطعماً ولا تدخل إلى العقول من باب الاغراء والخوارق إنما تخاطب الوجدانية وتستولي على القلوب بما لها من قوة الحججة ومتانة البرهان . وما رسول الله ﷺ إلا بشير يتبع الوحي الإلهي وليس لديه خزائن الأموال يوزع العطايا على الأتباع ولا يملك مفاتيح الغيب ليدل أصحابه على ما يبتغون ولا هو ملك كما يطلبون . فمن فاء إلى هذا الرسول الإنسان من فقد فاء إلى هداية الله وخرج من الظلام والعمى : « هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ »

والرسول — عليه السلام — مأمور من ربه أن يرسى قواعد المساواة والقيم الاسلامية الصحيحة .. فليس من حقه أن يطرد فقيراً من مجلسه ولا أن يتغاضى منه .. لأن الدعوة ليست للوجاهة والمال .. إنما هي لصاحب القلب الخائف من موقف الحساب .. ومهما تقول المشركون في الضعفاء من المسلمين فالله أعلم بالشاكرين ..

ثم يفتح الله باب رحمته لكل تائب حتي يتبين رسولنا الكريم من في طبعه ميل للتوبة والرجوع إلى الله ومن يسلك طريق الظلم والاجرام ...

فاذا قدمت الرسالة بهذه الصورة فليبين لهم البون الشاسع بين طريقه وطريقهم في غير جمالة ولا موارد فهو مأمور أن يعبد الله وحده ولا يتبع أهواءهم فهو على الطريق الواضح ولكنهم مكذبون .. يطلبون العذاب استهزاء وليس هذا الرسول الله .. فالحكم كله لله هو الذي يفصل في هذه القضية .. ولو كان الأمر بيد الرسول وجاد به لوقع بهم العذاب .. فالعذاب دائماً يحيق بالظالمين ..

وتحضى السورة ترسم صورة آيات الله التي غفل عنها المكذبون : إنها علم الله وقدرته .. علم الله المحيط بما في البر والبحر .. في سقوط الورقة اليابسة والحبة في ظلمات الأرض .. في كل رطب ويابس .. لا يغيب من ذلك شيء عن علم الله .. وهؤلاء المكذبون هم أيضاً في قبضة الله حين ينامون وحين يستيقظون .. وإذن فحياتهم ومماتهم وحركاتهم وأنفاسهم محسوبة وهم لا يعلمون إنها الرقابة المحكمة في ظل قدرة الله القاهرة . فعين الله حارسة وحفظته يعدون الأنفاس إلي أن يحين الأجل فيرد الظالمون إلي مولاهم الحق : من له الحكم وحده فيحاسبهم وهو أسرع الحاسبين .. على أن الكرب ليس دائماً إلي يوم الحشر : فهم يجدونه في حياتهم الدنيا حين يصادفون الهول في ظلمات البر والبحر فلا يجدون لهم ملجأ إلا الله فينجيهم ولكنهم يعددون لما كانوا فيه .. وعليهم أن يعلموا أن الله الذى ينجيهم من الكرب قادر أن يعيدهم إلي ألوان منه حين يشاء : فيعذب عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فيكون وقعه أشد . أو يجعلهم شيعاً وأحزاباً : يصب كل فريق عذابه على الآخر فتأكل الجماعة بعضها بعضاً .. فانظر كيف نصراف الآيات لعلمهم بفقهون !!

أما أنت يا رسول الله فاذا رأيت هؤلاء الذين يخوضون في آيات الله فأعرض عنهم ولا تجلس في مجالسهم ودعهم في لعبهم ولهوهم وامض لمهمتك : ذكر بالقرآن فعمى النفوس أن تؤوب إلي الله قبل أن تقع في العذاب جزاء كفرها وعنادها .. نعم — إنه العذاب الأليم والضلال المبين ، وكيف يرد من اهتدى إلي الله إلي الشرك القديم فيصبح موزع الخاطر لا يدري له طريقاً ولا يعرف له اتجاهاً ?? فتمسك يا رسول الله بهذا الهدى وأعلنها لهم : « إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » .. وأمرنا بأن نقيم الصلاة وأن نراقب الله في كل حال وأننا سنتحشر إليه لذلك نخاف منه .. وكيف لا نتمسك بالحق وربنا خلق السموات والأرض بالحق وقوله الحق والملاك كله له يوم ينفخ في الصور .. وهو عالم الغيب والشهادة فحكمه عادل وجزاؤه كامل وهو الحكيم الخبير بصرف الأمور بحكمته وبقدرها بخبرته على وجه اليقين .

وتلك جولة جديدة في ميدان العقيدة عن طريق القصة : قصة ابراهيم عليه السلام ..

فهو يدرك بنظره أن الأصنام ليست آلهة فينكر على أيه وقومه عبادتها .
ويطلع الله على الحقيقة الكاملة في ملكوت السموات والأرض فيظل ليله
ساهرًا مشغولاً بأمر العقيدة .

يرى كوكباً فيقول : هذا ربي .. ولكن الكوكب يغيب .. والإله
لا يغيب ??

ويرى القمر وكأنه لم يره من قبل فيقول : هذا ربي ولكن القمر —
أيضاً — يغيب .. فيتجه إلى خالقه الذي يحته في كيانه : لئن لم يهدني ربي
لأكونن من القوم الضالين !!

وتبدو الشمس لعينه أكبر الأجرام وأقواها فيقول : هذا ربي .. هذا
أكبر .. ولكن هذا الإله يأفل ويتوارى ?? !!

وهنا يتم الاتصال بين النظرة الصادقة والإله الحق .. هنا يجد ابراهيم إلهه
غير منظور ولا محسوس لأنه وجود مطلق .. إنه يجده خالقا لكل ما تراه
العين ولكل ما يدركه الحس مبدا للسموات والأرض وما فيها ومن فيهما من
مدرك ومحسوس .. وهنا يعلن براءته من آلهتهم المزيفة : يا قوم إني بريء مما
تشركون ويطمئن ابراهيم إلى خالقه ويدحض حجج قومه فهو على الحق وهم
على الباطل .. وكيف يخاف آلهتهم ولا يخافونهم من عاقبة إشرائهم .. وأى
الترييقين أحق بالأمن .. هنا يأتي القرار من صاحب الأمر الأخير : « الذين
آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ..

وتعقيب على هذا الحوار وذلك القرار الإلهي يأتي قول الحق سبحانه :
« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم
عليم .. » نعم رفع الله درجة ابراهيم على قومه بعقيدته النقية وإيمانه الصحيح
ووهب له ذرية صالحة فأضحى أبا الأنبياء : وهب الله له إسحاق ويعقوب

فكان من نسله عليه السلام هذا الرهط الكريم : داود وسليمان وأيوب ويوسف
وموسي وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ولوطا . .
ومن قبل إبراهيم كان نوحا عليه السلام . . كل هؤلاء جميعاً هداهم الله واختارهم
لحمل رسالته . . ولو انحرف واحد منهم عن الطريق لحبط عمله . . أما قومك
يا محمد فلا قيمة لكفرهم فان الله وكل هذه الرسالة إلى قوم يضحون في سبيلها
بكل غال وتقيس عليك أن تسير على ضوء مشاعرهم فأنت لا تطلب أجراً من
المشركين على هذه الهداية وليست رسالتك لهذا الجيل من العرب إنما رسالتك
ذكرى للعالمين . . واليهود كالمشركين لا يعرفون قدر الله وينكرون نزول
الكتب على البشر فاذن : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى يظهر من
ما فيه منفعتهم ويخفون منه كثيراً وقد تعلموا منه أشياء كثيرة لم يعلموها من
قبل . . نعم من أنزل هذا ؟ إنه الله . . فدعك — يا نبي الله ، منهم وذريتهم في
خوضهم يلعبون . . فهذا الكتاب الذي نزل عليك فيه البركات والرحمات مصدق
لما بين يديه . . أنزلناه عليك لتبلغه لأهل مكة والناس أجمعين فن في طبعهم
استعداد للهدى آمنوا وحافظوا على أهم شعيرة في الإسلام : الصلاة .

وهذا مشهد للظالمين المكذبين الذين يفترون على الله الكذب ويدعون
نزول الوحي عليه أو يقول الواحد منهم : « سأنزل مثل ما أنزل الله » مشهدهم
معروض على الأبصار وهم في غمرات الموت والملائكة تطلب أرواحهم وتوجههم
لأنهم اليوم يستحقون الهوان لكذبهم على ربهم واستكبارهم عن آياته ولقد
جاءوا إلى الله فرادى تاركين ما وراءهم وليس معهم شفيع ولا نصير من الآلهة
المدعاة فقد انقطع الجبل وغاب عنهم وهمهم وزعمهم فلا نجاة لهم اليوم من الله .

ولو عقل هؤلاء الكافرون وتدبروا آيات الله من حولهم لآمنوا قبل
أن يحل بهم العذاب . لذلك تأخذنا السورة في رحلة تأملية معرب هذا السكون
لتكشف لنا فيها أسرار الله التي لا تعدلها معجزات وخوارق يطلبها هؤلاء
الحمقى . . فان هذه المشاهد المألوفة تحمل آلاف الخوارق والدلائل على عجب قدرة
الله : فهو فائق الحبة عن نبتة نامية والنواة عن شجرة صاعدة وهو سبحانه
يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . والمبدع الذى يخلق الحياة

ويحولها من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة . ذلكم الله فكيف تصرفون عنه وعن آياته وهي ظاهرة للمدارك واضحة للعيون .

إنه فالق الإصباح عن فحمة الليل بالضياء وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حساباً ذلك تقدير العزيز العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

والله هو الذي جعل هذه النجوم على كثرتها ونظامها في خدمة البشر يهتدون بها في ظلمات البر والبحر . وهذا الاهتداء يحتاج إلى علم فيجىء التعقيب « قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » .

والله هو الذي خلقكم هذا الخلق البديع من نفس موحدة السكنة في الذكر والأنثى : فنفس هي مستودع للخلية في صلب الرجل ونفس هي مستقرها في رحم الأنثى ثم تأخذ الحياة في النمو والانتشار فاذا أجناس وألوان ولغات وشعوب : « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » .

والله هو الذي أنزل من السماء ماء فكان به قوام كل نبات وكل حياة فلننظر إلى ما في هذا كله من آيات ودلائل . « إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

وبعد هذه الصفحة المشرقة من كتاب الكون يرسم القرآن صورة لشرك المشركين فإذا هو سخف تسمئز منه القلوب : فهم قد جعلوا لله شركاء من الجن والله قد خلق الجن . وافتروا على الله أن له بنين وبنات : والله منزه عما وصفه به هؤلاء . وكيف لبديع السموات والأرض أن يكون له بنين وبنات وليست له زوجة ؟ كيف هذا وهو الذي خلق كل شيء فلا يحتاج لشيء . . . إنه هو رب الخلق الحقيقي لا إله إلا هو فتجب عبادته فهو جدير بالعبادة وأمر كل شيء إليه . . إنه لا تحيط به العقول ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

وهذا هو الطريق كما أوضحه رسول الله فن سار فيه فلنفسه ومن ضل عنه فقد خسر نفسه وليس رسول الله على هؤلاء بحفيظ إنما عليه أن يتبع ما أوحى إليه من ربه وأن يعرض عن المشركين وأن يترك ادعاءهم بأنك درست هذا القرآن وجئت به من كتب السابقين فلو شاء الله ما أشركوا وما أنت عليهم بوكيل .

والآيات توجهنا إلى لفتة نفسية في معاملة المشركين وذلك ألا نسبهم اتقاء أن يسبوا الله عدواناً وهم لا يعلمون شفاعة ما يرتكبون . . . وختاماً لهذه الجولة يبين الله عبث الكافرين حين يقسمون بالله إن جاءتهم آية ليؤمنن بها وهم كاذبون في ذلك . فالآيات عند الله وهذه كلها تعلات وإعنات « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » فلا يعرفون أنهم عن الإيمان محجوبون . نعم إنها مشيئة الله يجعل لكل بنى عدواً من شياطين الإنس والجن يزخرفون القول الباطل لبعضهم فيعتزون بما يقولون . ومن واجب الرسول أن يدعهم وافتراءهم فانهم منحرفون « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » .

والآن تبدأ السورة وإلى أواخرها في عرض قضية هامة من قضايا هذا الدين بعد أن مهدت لها بتقرير سلطان الله المطلق فيما يقع في هذا العالم صغيره وكبيره . هذه القضية هي قضية الحل والحرمه فيما ذكر اسم الله عليه ومالم يذكر اسم الله عليه من الذبائح . وبالتالي من الذي يمتلك الحكم على شيء ما بأنه حلال أو حرام ؟

وحين تعرض سورة الأنعام هذه القضية وتستغرق كل هذا النقاش تقرّر مبدأ ولايهم أن يكون الأمر ذبيحة يؤكل منها أو لا يؤكل أو أن يكون أمر دولة تقام أو نظام مجتمع يوضع فهذه كتلك من ناحية المبدأ وهذه كتلك تعنى الاعتراف بالوهمية الله وحده أو رفض هذه الألوهية .

والآيات تبدأ فتقرر جهة الحاكمية في أمر العباد كله : أفتغير الله ابغى

حكماً؟ وهل العباد في حاجة إلى مصدر آخر بعد أن نزل هذا الكتاب محتويّاً على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة . وأهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من ربك بالحق ومايزالون من أجل علمهم بهذا كله يجارون هذا الدين ويجارون هذا الكتاب حرباً لا تهدأ حتي يحولوا مجرى أحكامه إلى أحكام البشر . وهنا يلتفت السياق إلى رسول الله ﷺ قائلاً : « فلا تكونن من الممتزين . وهو توجيه يدل على ضخامة ما كان يلقاه عليه السلام والجماعة المسلمة معه من السكيد والعنت والتكذيب والجحود . نعم : مأمور بأن لا يجادل المشركين فقد تمت كلمة الله صدقاً : فيما قال وعدلاً : فيما شرع وحكم وهو السميع لما يقوله عباده العليم بما يصلح لهم وما يصلحهم . أما أهل الأرض فيتبعون الظن والأوهام ومطاولتهم في ظنهم إنحراف عن طريق الله الذي يعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

وهذا مثال من واقع حياة الجاهلية : الذبائح . سن الله فيها قانوناً . فيجب أن تدخل تحت القاعدة الكلية : الحياة كلها لله . فلا أكل إلا مما ذكر عليه اسم الله وإلا فهو الخروج عن هذا الدين . وكيف لا تأكل كما أمر الله وقد فصل لنا الحلال والحرام ؟ ولكن الأهواء الجاهلية تعتدى على سلطان الله وتشرع ما لم يأذن به الله . لذلك تؤكد الآيات مرة ومرة : « ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم إن أطعتموهم إنكم لمشركون .

فمطاولتهم في هذه الجزئية الصغيرة إشراك بالله وهدم لقاعدة الإسلام الكبرى : [الحياة لله وباسم الله تسير] أما هؤلاء المتعتنون المجادلون فحسبهم أنهم يعيشون في الظلمات . . في الموت والجهل وبخيل إليهم حسن هذا العمل فالفرق بينكم وبينهم واضح « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » .

إن الله قد جرت سنته أن يجعل في كل قرية قرآناً من أكابر المجرمين يقفون

موقف العداء من دين الله ولكن نهاية الكبر خاسرة .. والمؤمنون لا يخوضون المعركة وحدهم فالله وليهم فيها وهو يرد على الكافرين كيدهم : وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ..

وهذه صورة لحقدهم وكيدهم : حين يعقلون إيمانهم على أن يؤتوا مثل ما أوتى رسل الله .. وهذا غباء فالله أعلم حيث يجعل رسالته .. أما المجرمون فلهم الخزي والعذاب الشديد عند الله بما كانوا يمكرون .

وإنها لإرادة الله التي يسرت كلا لما خلق له : فمن يرد الله هدايته يسترح في الإسلام وينشرح له صدره ومن يغلق فطرته عن النور يجعل الله صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء .. وهكذا يجعل الله العذاب والانتكاس والضيق على الذين لا يؤمنون ..

وهذا حديث الإيمان يسير متتابعاً من قضية الذبائح إلى ما يعقبها من تقريرات تؤكدها .. وهذا صراط ربك مستقيماً ، وضح الآيات وفصلها لمن كان له قلب ذاكر لا يغفل ، والذين يتذكرون « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » ..

أما أعداء الله فالسورة تعرضهم وسط حلقتين :

١ — الذبائح ..

٢ — الذنور من الأنعام والأولاد .. تعرضهم والله يقول للجن ، قد استكثرتم من التابعين لكم من الإنس .. ويحيب المغرورون بوسوسة الشياطين ربنا استمتع بعضنا ببعض .. فمن منقذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان واستمرأ ذلك إلى أن جاء أجلهم .. وإذن فالنار مشواهم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ..

وهكذا يكون الولاء والاتفاق في الوجهة والهدف بين الظالمين لأن مصيرهم واحد هو الهلاك والعذاب ..

ويعود السياق ليسأل الجن والإنس : « ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟؟ » ..

وهنا يسجل هؤلاء على أنفسهم استحقاتهم لما هم فيه : « قالوا شهدنا على أنفسنا » ويأتي هذا التقرير في موضعه « وغرثهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .. فقد غرثهم الحياة الدنيا وقادهم الغرور إلى الكفر ثم هاهم أولاء يشهدون على أنفسهم من حيث لا تجدى المكارية والانكار .. وبلغت السياق إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين معقبا على هذا المشهد وما فيه فيقول : « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » ومبيننا حقيقة أخرى في شأن جزاء المؤمنين والشياطين فيقول : « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » ..

على أنه سبحانه إنما يرسل رسوله رحمة بالعباد فهو غنى عنهم وهو قادر على أن يهلكهم ويستخلف من بعدهم ما يشاء فهم في قبضة الله ورهن إشارته ولن يفتوا من عقابه ..

وتنتهي تلك التعقيبات بهذا التهديد : « قل يا قوم اعملوا على مكاتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار .. إنه لا يفلح الظالمون ..

وهذا تهديد الواثق من الحق الذي معه والحق الذي وراءه ومن القوة التي في الحق والقوة التي وراء الحق ، وقبل أن نبدأ حلقة جديدة في اعتقاد المشركين الفاسد يجب أن نتبين مقدار هذا الاحتفال بأمر الذبائح رغم أن آيات السورة — وهي مكية — لم تكن تعالج تشريعات إنما كانت تؤسس عقيدة .. ومن ثم نعرف أن مسألة الذبيحة جزئية تنبثق من أصل كبير : هو أن الحكم يجب أن يكون لله وإلا فهو الإشرار والظلم والعذاب وموقف الخزي والضلال يوم القيامة ..

ولنبدأ من الآيات جولة جديدة في اعتقادات المشركين وكيف أراد الإسلام اقتلاع جذورها :

فهم قد جعلوا لله جزءاً من الحرث والأنعام ولآلهتهم جزءاً مثله ولم تكن القسمة عادة : فقد كانوا يجورون على نصيب الله ويأخذون ماجعلوه له إذا ما أصابهم السنة وأقروا ما جزأوه لشركائهم : وهذا كله محض افتراء يرد عليه القرآن بأنهم معترفون ابتداءً أن هذا خلقه وهذا ملكه : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً .. » فبالرغم من أنه ملك لله خلقه بقدرته يتصرفون هم فيه حسب ما تمليه الأهواء .

وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف في أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم .. وهدف هؤلاء الشياطين من ذلك : إهلاكهم وأن يجعلوا دينهم عليهم ملتبساً غامضاً لا يقفون منه على تصور واضح ..

وهذا دائماً شأن الجاهليات في كل زمن : تنشئ عادات وتقاليد تضغط على الناس وترهق أعصابهم .. ولكن مع ثقل هذا الواقع فإن السياق القرآني يهون منه ويخبر رسوله أن الشياطين جميعاً في قبضة الله ولو شاء ما فعلوا هذا ولكن شاء ذلك للابتلاء .. فليمض الرسول وصحبه في طريقهم وليدعوا له الشياطين وما يفترون على الله وما يكيدون .

.. وتعود الآيات إلى شرح ضلال الجاهلية في تقسيمها للأنعام والحرث : فهذه أنعام وزروع مختصة بالإله محرمة على الناس لا يطعمونها إلا من شاء الله وتلك أنعام لا تتركب وأنعام أخرى لا يذكر عليها اسم الله عند ركوبها ولا عند حلبها ولا عند ذبحها إنما تذكر أسماء الآلهة وتخلص لها ..

كل ذلك افتراء على الله وسوف يعاقبهم على هذا الضلال .. وتستطرد الآيات في بيان أوهام تصرفاتهم حين يقولون : إن ما في بطون هذه الأنعام خالصة للذكور منهم حين تنتج محرمة على الإناث إلا أن تكون ميتة فيشارك فيها الإناث والذكور .. والحكيم العليم لا بد أن يجازيهم على هذا الضلال .

ويعجب الإنسان لهذه الضلالات التي يتحملها المنحرفون عن صراط الله المستقيم والتي تكلفهم فلذات الأكباد فوق ما تكلفهم تعقيد الحياة واضطرابها والسير فيها بلا ضابط سوى الوهم والهوى والتقليد . ألا أنها هي الخسارة.

الفادحة في الدنيا قبل الآخرة حين تنحرف البشرية عن طريق الله وترجع إلى العبودية الذليلة لأرباب من العبيد . « قد خسر الذين قتلوا أولادهم ستمهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين . »

ولا يتركهم الله قبل أن يردهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها : وهي أن الله هو الخالق الرازق والسيد المالك والذي أنشأ هذه الجنات على اختلاف أشكالها وطعومها وهو الذي بث الحياة في الأرض ونوعها هذا التنوع . فهل يجوز التصرف في ملكه إلا باذنه ؟ ؟

ويستعرض القرآن مكامن الجاهلية جزئية جزئية فلا يجد هؤلاء دليلاً يدافعون به سوى الوهم والانحراف :

هذه الأنعام متساوية في خلقها فكيف تحرمون بعضها وتحلون بعضها الآخر ؟ ؟

وبقية الأزواج من الإبل والبقر أيهما كذلك حرم ؟ ؟ . أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ ؟ إنه الظلم والافتراء على الله بغير علم لإضلال الناس . والله لا يهدي القوم الظالمين .

ثم يأخذ بأيديهم ليبين لهم ما حرم الله حقاً من الأنعام عن بيته صادقة لا عن ظن وخيال :

« قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير - فانه رجس - أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم . . . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورها أو الخوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بغيرهم وإنما لصادقون . »

ويفتح الله بابه بقدر ما يرهبهم بقوته وجبروته : « فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

ويواجه وهمهم الأخير : إصاؤهم أنهم مجبورون لا يخبرون فيما تردوا فيه من شرك وضلال .

والمسألة لا تحتاج إلى فلسفات ومجادلات في قضية الجبر والاختيار : فإله لا يكلف الناس أن يعلموا ما في الغيب حتى يكتفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أو امره ونواهيه ليتبعوها وحين يحاولون ذلك تكفل الله بأن يهديهم ويشرح صدورهم للإسلام - والله سبحانه قادر أن يخلق الناس ابتداء من طبيعة واحدة كالملائكة أو الشياطين ولكنه شاء غير ذلك : شاء أن يبتلى بنى آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال وبذلك تكون له الحجة البالغة على عباده . . . فسبحانه من إله حكيم .

وكما وجه الله رسوله من قبل وفي أول السورة إلى مواجهة المشركين في موقف الإشهاد على قضية الألوهية بوجههم إلى مواجهتهم في قضية التشريع . فهما قضيتان لا ينفصلان والتخلي عنهما وإنكار واحدة منهما شرك بالله « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » كما أن منكري الألوهية بربهم يعدلون « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

وبعد هذه الجولة الضخمة مع المشركين وتصوراتهم وبعد الشوط الطويل في بيان قدرة الله وعلمه المحيط بناديتهم ليقص عليهم المحرمات والأوامر ليوضح الطريق المستقيم والذى ستدب خطاه في صفحات مقبلة . بناديتهم فيعرفهم بما يجب عليهم أن ينتهوا عنه وما يتحتم عليهم أن يلتزموا به .

إنه عدم الإشراف بالله والاحسان للوالدين . والبعد عن قتل الأولاد . وعدم الاقتراب من التواحش وأظهرها فاحشة الزنى . سواء ما ظهر منها وما بطن . والانتهاى عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق . وألا تقرب مال اليتيم إلا فى الحدود التى رسمها الله . وأن نوفي المكيال والميزان حقهما فى حدود الطاقة البشرية .

وأن نعدل في القول ولو كان المشهود عليه قريباً ، وأنه الوفاء بعهد الله ، واتباع صراط الله المستقيم ، وإلا تاهت بنا السبل لأنها جميعاً سبل الشيطان ، والله وصانا بهذا الفصل إلى مرتبة التقوى والخوف منه فنحيا في أمان وسلام .
ولا تترك هذه الوصايا دون تعقيب وتقرير وتثبيت وتأكيده لأهميتها في حياة البشرية وجمعها لمبادئ الإسلام من عهد آدم إلى عهد محمد عليهم السلام .

فتحدث الآيات بعد هذه الوصايا عن كتاب موسى باعتباره أقرب الكتب هو وكتاب عيسى الذي يعتبر تكمة لكتاب موسى وأن هذا الكتاب فصل كل شيء وحمل الهدى والرحمة لمن يؤمن به وجاء القرآن مكملًا للرسالات خاتماً للكتب يحمل البركة والرحمة والسكينة لمن اتبعه ، وجاء القرآن قطعاً لحجة العرب كي لا يقولوا إنه لم ينزل علينا كتاب كالذي نزل على اليهود والنصارى ولو نزل علينا لكننا أهدى منهم فما هو ذا القرآن قد جاءكم به محمد رسول الله يحمل إليكم حقائق بيده لا لبس فيها ولا غموض ، وهو هدى لما هم فيه من ضلاله ، ورحمة لهم في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك فهم مكذبون معرضون ، فمن أشد ظلماً ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهي تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ؟؟

إنهم في طبعهم آفة تملئهم عن الحق ، والله سينزل بهم سوء العذاب جزاء هذا الإعراض عن دين الله ، ويهدوهم الله فيقول : هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ؟ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، قل انتظروا إنا منتظرون .

ويعلن القرآن مفارقة الإسلام لهؤلاء الذين فرقوا دينهم شيئاً فردهم إلى الله ينههم ويحاسنهم بما كانوا يفعلون .

وبهذه المناسبة يقرر الله ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباد المؤمنين

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » .

وفي ختام السورة وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع يأتي هذا التقرير الحاسم بهذا اللفظ « قل » الذي يتكرر مع كل أمر ونهى ليلمس في كل آية أعماق القلب البشري لمسات دقيقة في مكانن التوحيد الشامل : فالرسول — عليه السلام — يعلن أن ربه هداه إلى صراط مستقيم ، وهذا الصراط لا التواء فيه ولا عوج : ديناً قياً ، وهو دين الله القديم منذ ابراهيم أبي الانبياء عليه السلام .

ويردد الرسول هذه التسيحة المباركة تحمل التجرد الكامل والإخلاص الأكيد : قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

ويعان استنكاره أن يتخذ له رباً غير الله فهو رب كل شيء وهو الذي يجازى كل نفس بما كسبت والجميع راجع إليه يظهر لهم ما خفي ويكشف أمامهم ما كانوا فيه يختلفون ، وهو الذي استخلف آدم وذريته في الأرض ووزع الأرزاق بحكمته ومشيئته اختباراً لهذا الجنس البشري فيما أعطاه :

« إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

وبعد :

فهذه سورة الأنعام في هذا العرض القصير الذي يبين مدى احتفال السورة كلها بأمرين هامين : الألوهية ، والتشريعات ، وأن الله هو الإله القادر المتصرف في شؤون خلقه ، وتأتى وصايا هذه السورة في آياتها الثلاثة جميعاً وتركيزاً لما حوته من حقائق هائلة في الكون والحياة وما وراء الكون والحياة من غيب مكنون ومن قدر مجهول ومن مشيئة تمحو وتثبت وتنشئ وتعدم ونحیی وتمیت وتمحرك الكون والأحياء والناس كما تشاء

والآيات الثلاثة بعد مشاهد القيامة ومواقف الحشر ولحظات الأمل

والاستبشار تأتي في موضعها النفسي المناسب لتلقى بهذا الأسلوب الجامع لمطالب الحياة ولتقذف في القلب أنوار الوحي الإلهي فتشرق الروح وتحقق هذه التعاليم في السر والعلن ، بل ويدافع صاحبها عن هذه المبادئ السامية في عزة لا تعرف الذل وشمم وإباء لا يركنان إلى الضيم وهو يعلم أنه يكسب الخلود ويحقق الخير وينشر الأمان في كل مكان ويحقق معنى الاستخلاف في أرض الله .

وبعد هذا الاستعراض وبيان موضع الآيات في السورة آن لنا أن نتتبع كل وصية بالتحليل حتى نقف على أسرار القرآن ونرى ما صنعه وما يصنعه في حياة الناس ، وكيف أحيا أمة من العدم ونقلها من رعاة أغنام إلى رعاة أمم وبناة حضارات ، وصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
هوؤمنون بالله (١) »

1. The first part of the document discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It emphasizes that this is crucial for the company's financial health and for providing reliable information to stakeholders.

2. The second part of the document outlines the specific procedures for recording transactions. It details the steps from identifying a transaction to entering it into the accounting system, ensuring that all necessary details are captured.

3. The third part of the document discusses the importance of regular reconciliation. It explains how this process helps to identify and correct errors, ensuring that the company's books are always in balance.

4. The fourth part of the document discusses the importance of maintaining proper documentation. It highlights the need to keep all supporting documents, such as invoices and receipts, organized and accessible.

5. The fifth part of the document discusses the importance of regular audits. It explains how audits help to ensure the accuracy and integrity of the company's financial records.

6. The sixth part of the document discusses the importance of staying up-to-date on changes in accounting standards and regulations. It emphasizes the need for continuous learning and adaptation.

7. The seventh part of the document discusses the importance of maintaining a strong internal control system. It explains how this system helps to prevent and detect errors and fraud.

8. The eighth part of the document discusses the importance of maintaining a clear and concise communication system. It emphasizes the need for transparency and accountability in all financial reporting.

الوصية الأولى :

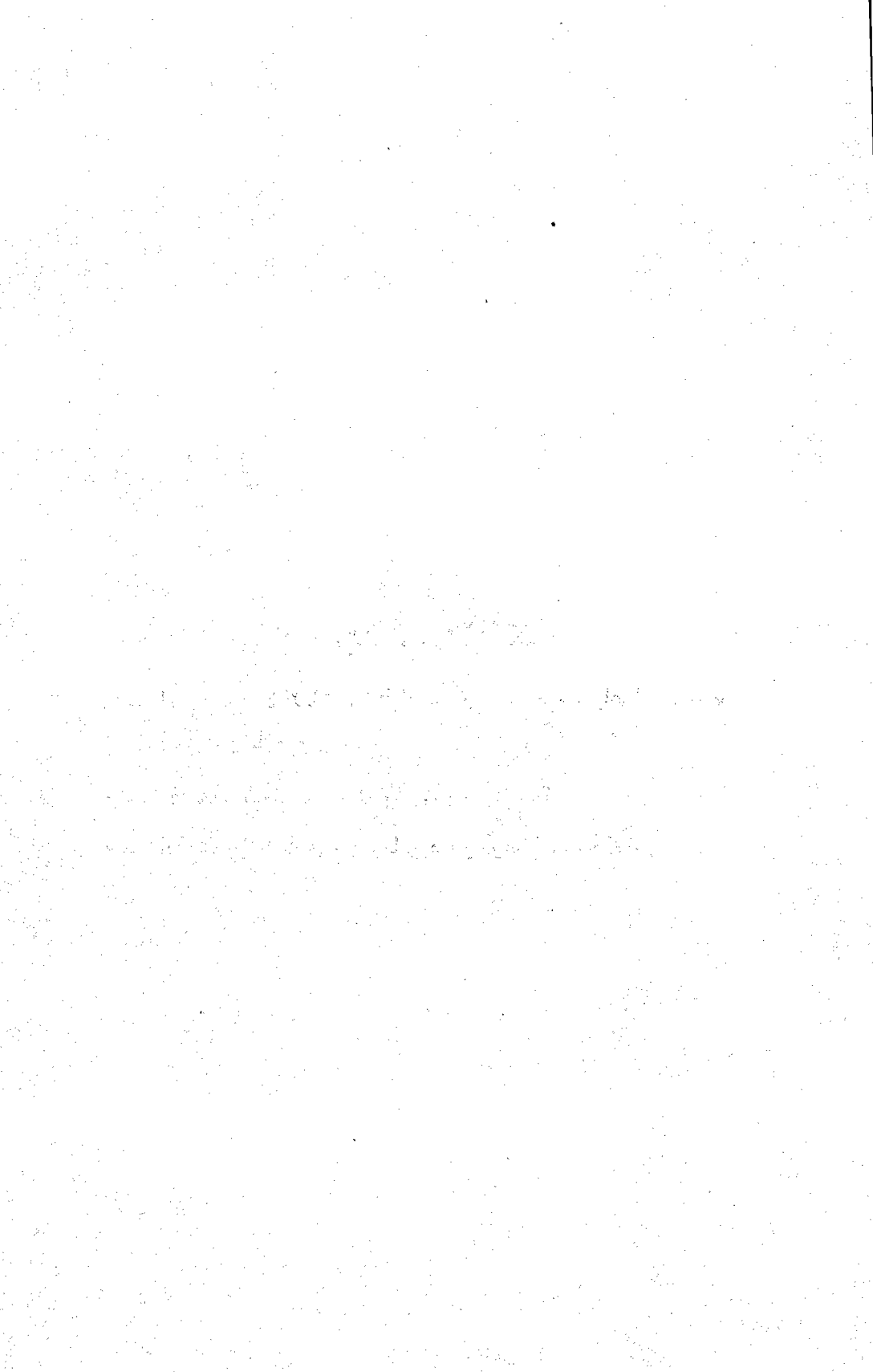
قوله تعالى :

« قُلْ تَعَالَوْا أَنْزَلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ »

١ — المعنى اللغوي للكلمات ، تعالوا — أنزل — حرم ، واعراب « ما »
في قوله « ما حرم »

٢ — ماذا يدل عليه قوله ، « تعالوا » ، « ربكم » ??

٣ — التوفيق بين « ما حرم » وما ورد من الوصايا بصيغة الأمر



١ — ورد هذا الأمر «تعالوا» في القرآن ثمانين مرآة ... وهو كما يقول الفخر الرازى ، من الخاص الذى صار عاماً وأصله أن يقوله من كان فى مكان لمن هو أسفل منه ثم كثر وعم^(١) !

و«أتل» أى ، أقرأ ما حرم ربكم عليكم « وقد جزم الأكثر بأن التلاوة خاصة بالقراءة ، وأصل التلاوة ، الاتباع ، قال الراغب ، التلاوة تختص باتباع كلام الله المنزل بالقراءة نارة وأخرى بالارتباط لما فيه من أمر ونهى وترغيب وترهيب أو ما يتوهم فيه ذلك وهى أحص من القراءة ،^(٢) ؟

والتحريم . من الحرمة ، ما لا يحل انتهاكه . و« ما » فى قوله « ما حرم ربكم » منصوبة وفى ناصبه وجهان أنه منصوب بقوله «أتل» والتقدير أتل الذى حرمه عليكم . والثانى أنه منصوب «بحرم» والتقدير أتل الأشياء التى حرم عليكم^(٣) والمعنى بعبارة أوضح . حرم عليكم ربكم ما أتولوه .

٢ — وحين نقرأ قوله تعالى « قل تعالوا » نلاحظ رحمة الله بخلقه وسياسة القرآن الحكيمة فى تربية النفوس إذ بنادى العلى الكبير عباده لينتقدم من وهدة الضلال ويحرمهم من رق العادات التافهة والتقاليد البالية والأوضاع الخرفة والشرايع التى أملاها الهوى وليست شريعة أو ديننا يناديهم من رفعتهم لينظروا إلى جنابه الحق وليفيقوا من غفلتهم ويتيقظوا إلى مآم فيه حيرة وجمالة وخسران . وحين يقرأ عليهم ما حرمه إنما يريد بهم بلطفه وعنايته .

والتزينة الإلهية تبدو فيها الرحمة الحانية والسكينة تفجر الكيان الإنسانى آمناً مطمئناً لا تسيطر عليه الشهوات ولا تصرفه وساوس الشياطين ، من الجن والإانس .

(١) مفاتيح الغيب ص ٢٣١ ج ١٣٢

(٢) حاشية القاموس المحيط ص ٣٠٦

(٣) مفاتيح الغيب ص ٢٣١ ج ١٣٣

وإذا فآله بنا دينا ليرينا . وما أجل تربية الخالق لعباده .

٣ — وقبل أن نبدأ في بيان ما اشتملت عليه الوصايا من أسرار نقف مع المفسرين لنعرف أمرين هامين .

لأول . أن من بين الوصايا العشر خمساً جاءت بصيغة الأمر وهو مطلوب فعله فكيف يتفق هذا مع قوله سبحانه (تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) ؟؟

الثاني . لماذا ختمت كل آية من الآيات الثلاثة بقوله . (ذلکم وصاکم به) ؟ وهل لهذا التعبير صلة تفسيرية بقوله في أول الوصايا أتل ما حرم ربكم عليكم ؟؟

أما الأمر الأول . فن أجمع ما قيل فيه ماساقه الفخر الرازي حين أورد هذا الاعتراض وأجاب عليه فقال . « فان قيل قوله ألا تشرکوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً كالتفصيل لما أجل في قوله ما حرم ربكم عليكم . وهذا باطل لان ترك الإشرک والإحسان وبالوالدين واجب لا محرم ؟؟

والجواب من وجوه .

أولها ، أن المراد من التحريم أن يجعل له حريماً معيناً وذلك بأن بينه ياناً مضبوطاً معيناً .

فقوله . أتل ما حرم ربكم عليكم ، معناه أتل عليكم ما بينه ياناً شافياً بحيث يجعل له حريماً معيناً ، وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل .

ثانيهما . أن الكلام تم وانقطع عند قوله ، أتل ما حرم ربكم ، ثم ابتداء ، عليكم ألا تشرکوا .

كما يقال . عليكم السلام ، أو أن الكلام تم وانقطع عند قوله . أتل ما حرم ربكم عليكم ثم ابتداء فقال ، ألا تشرکوا به شيئاً بمعنى لئلا تشرکوا والتقدير أتل ما حرم ربكم عليكم لئلا تشرکوا به شيئاً .

ثالثا : أن تكون « أن » في قوله « ألا تشر كوا » مفسرة بمعنى « أي »
وتقدير الآية أتل ما حرم ربكم عليكم أي لا تشر كوا . أي ذلك التحريم هو
قوله . لا تشر كوا به شيئا « (١) .

وقد وافق الزمخشري الإمام الفخر الرازي في أن « أن » مفسرة وليست
ناصبة للفعل المضارع .

إنما الفعل المضارع مجزوم بلا الناهية ويقول في التخلص من عطف الأوامر
على النواهي مما يستلزم الأمر وضده . « فان قلت . إذا جعلت « أن » مفسرة
لفعل التلاوة وهو معلق بما حرم ربكم وجب أن يكون ما بعده منها عنه محروما
كله كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهي فما تصنع بالأوامر ، قلت .
لما وردت هذه الأوامر مع النواهي وتقدمهن جميعاً فعل التحريم واشتركن في
الدخول تحت حكمة علم أن التحريم راجع الى أضدادها وهي . الإساءة إلى
الوالدين وبخس الكيل والميران وترك العدل في القول ونكث عهد الله .

ويوجه قراءة فتح الهمزة في « وأن هذا صراطى مستقيماً » على هذا الرأي
بجعلها علة للاتباع بتقدير اللام كقوله تعالى . « وأن المساجد لله فلا تدعوا
مع الله أحداً » بمعنى . ولأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه والدليل عليه القراءة
بالكسر كأنه قيل . واتبعوا صراطى لأنه مستقيم أو واتبعوا صراطى أنه
مستقيم « (٢)

ومن أقرب ما قيل في هذه المسألة ما ذكره محمد بن أبي بكر بن عبد القادر
الرازي وذلك إذ يقول . (فان قيل كيف قال . قل تعالوا أتل ما حرم ربكم
عليكم ثم فسره بعشرة أحكام . خمسة منها واجبة والتلاوة ووصف للفظ لا للمعنى
كي لا يقال . أضدادها محرمات ؟ قلنا قوله . أتل ما حرم ربكم عليكم .

(١) مفاتيح الغيب ص ٢٣١ ج ١٣

(٢) الكشف للزمخشري ص ٥٣٥ ج ١

لا ينفى تلاوة غيره فقد تلا ما حرم وتلا غيره أيضاً . الثاني . أن فيه إظهاراً
تقديره . « أتلا ما حرم ربكم وأوجب » (١)

وقد قال ابن جزى فى إجمال أقوال المفسرين وتوجيه رأيه :

« قيل . (أن) هنا حرف عبارة وتفسير فلا موضع لها من الإعراب و (لا)
ناهية جازمت الفعل — وقيل . (أن) مصدرية فى موضع رفع تقديره . الأمر
ألا تشاركوا . فد (لا) على هذه نافية . وقيل (أن) فى موضع نصب بدلا
من قوله « ما حرم » ولا يصح ذلك إلا أن كانت « لا » زائدة وإن لم تكن
زائدة فسد المعنى لأن الذى حرم على ذلك يكون ترك الإشراف والأحسن عندي
أن تكون (أن) مصدرية فى موضع نصب على البدل و (لا) نافية ولا
يلزم ما ذكر من فساد المعنى لأن قوله (ما حرم ربكم) معناه . ما وصاكم به
ربكم بدليل قوله فى آخر الآية (ذلكم وصاكم به) فتضمن التحريم معنى
الوصية والوصية فى المعنى أعم من التحريم لأن الوصية تكون بتحريم وبتحليل
وبوجوب وندب ولا ينكر أن يريد بالتحريم الوصية ، لأن العرب قد تكرر
اللفظ الخاص وتريد به العموم كما تكرر اللفظ العام وتريد به الخصوص .

إذا تقرر هذا فتقدير الكلام . قل تعالوا أتلا ما وصاكم به ربكم . ثم
أبدل منه على وجه التفسير والبيان فقال . ألا تشاركوا به شيئاً ووصاكم
بالإحسان بالوالدين ووصاكم ألا تقتلوا أولادكم فجمعة الوصية ترك الإشراف
وفعل الإحسان بالوالدين وما بعد ذلك .

ويؤيد هذا التأويل الذى تأولناه أن الآيات اشتملت على أوامر
كالإحسان بالوالدين وقول العدل والوفاء فى الكيل والوزن وعلى نواه
كالإشراف وقتل النفس وأكل مال اليتيم فلا بد أن يكون اللفظ المقدم فى

(١) أنموذج جليل فى بيان أسئمة وأجرية من غرائب أى التزييل للرازي

أولها لفظاً بجمع الأوامر والنواهي لأنها أجملت فيه ثم فصلت بعد ذلك ..
ويصلح لذلك لفظ الوصية لأنه جامع للامر والنهي فذلك جعلنا التحريم بمعنى
الوصية ويدل على ذلك ذكر لفظ الوصية بعد ذلك وإن لم يتأول على ما ذكرناه
لزم في الآية إشكال وهو عطف الأوامر على النواهي وعطف النواهي على الأوامر
فإن الأوامر طلب فعلها والنواهي طلب تركها وواو العطف تقضي الجمع بين
المعطوف والمعطوف عليه ولا يصح ذلك إلا على الوجه الذي تأولناه من عموم
الوصية للفعل والترك .. (١)

وإذا فالقصد من التحريم هو الوصية .. وهي تشمل الجانبين، الأوامر
والنواهي .. والغاية من ذكرها معا واضحة ..

إذ أنهما جميعها طريق الله الذي يلتزمه المسلم فلا يجيد عنه .. وهي
المنهج الواضح الذي لا يضل فهي عشر وصايا في العدد ولكنها تشمل العقيدة
والقول والعمل ..

أما الأمر الثاني : فهو ذكر (وصاكم به) عقب كل آية من الآيات
الثلاثة وهل لهذا صلة تفسيرية بقوله في أول الآيات .. أتلى ما حرم ربكم
عليكم ??

فإن هذا الأمر يبدو واضحاً بعد أن عرضنا رأى ابن جزى وأن التحريم
يعنى الوصية وهي كلمة عامة تشمل النواهي والأوامر .. والنواهي وصى بها
على سبيل التحريم والأوامر وصى بها على سبيل الإيجاب .

وانما كرر هذا التعبير في نهاية كل آية من الآيات الثلاث للإشارة إلى ضرورة
الإلتزام والتنفيذ لهذه الأحكام .. يقول أبو حيان : (ذلكم إشارة إلى جميع

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزى الكلبي المالكي المتوفى

ما تقدم وفي لفظ وصاكم من اللطف والرحمة وجعلهم أوصياءه تعالى ما لا يخفى
من الإحسان (١) .

وخشية التطويل والإسهاب الذي سيجرنا إليه ما ذكره المفسرون حول
هذه المعاني وتحليلها نكتفي بهذه الأضواء الكاشفة لما دار بأنفسنا من تساؤلات
وننتقل إلى الموضوع الرئيسي (الوصايا العشر) تفهم مع القرآن أسرارها
ونجتلي أنواره .. والله ولي المتقين ..

قوله تعالى :

« أن لا تشركوا به شيئاً .. »

١ — المعنى اللغوي لكلمة الشرك

٢ — الآيات التي ورد فيها لفظ الشرك : تحليل ومقارنة

١ — المعنى اللغوي لكلمة الشرك .. وإعراب الجملة :

أما المعنى اللغوي لكلمة الشرك : فالمعاجم تذكر لنا أن الشرك هو الكفر .. وقد أشرك بالله فهو مشرك .. ويقول صاحب القاموس المحيط في مادة الشرك : « والشرك والشركة بمعنى .. وقد اشترك وتشاركوا وشرك أحدهما الآخر .. والشريك بالكسر كأمر : المشارك . جمعه أشراك . وهي شريكة جمعها شركاء وشركة في البيع والميراث كعلمه شركة .. وأشرك بالله كفر فهو مشرك ومشركي .. والاسم : الشرك فيهما ورغبنا في شرككم : مشاركتكم في النسب » (١) .

أما إعراب « أن لا تشركوا » فقد وفينا هذا الإعراب حقه ووجهنا الآية مع كل إعراب ونقلنا أقوال المفسرين بما لا حاجة إلى إعادته .

٢ — الآيات التي ورد فيها لفظ الشرك : تحليل ومقارنة :

ولعل في تتبع الآيات التي جاء فيها لفظ الشرك ما يوضح لنا معناه ويكشف عن حقيقته : فقد تكرر في القرآن أكثر من مائة وستين مرة . . . وذلك لأن التوحيد أساس الإسلام كله بل أساس الشرائع كلها من لدن آدم إلى محمد عليهم السلام .

ومن محو الشرك وإقرار الوحدانية المطلقة والربوبية الكاملة لله ينبثق الخير كله وتستقر الحياة كلها وتسير في مجراها الصحيح .

والقرآن حين ينوع أساليب النقاش مع المشركين ويصرف الآيات إنما يريد أن يصل إلى جذور الشرك فيقتلعها من النفوس التي تعودت عليه . . . فالتوحيد أساس الفطرة : « فطرة الله التي فطر الناس عليها . لا تبدل لخلق الله ذلك الدين القيم .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. متبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » (٢) .

(١) القاموس المحيط ج ٣ ص ٣٠٨ (٢) سورة الروم ٢٩/٣٠

وهو العهد الأزلي منذ الخليقة ، تتجاوب معه العقول السليمة فتأبى تقليداً
أعمى للإباء :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم .. من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم
ألمست بربكم ?? قالوا : بلى شهدنا .. أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا
غافلين .. أو تقولوا : إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا
بما فعل المبطلون ? » (١).

فاذا انصرفت عن نداء الحق وطمست فطرتها وسارت وراء كل ناعق
فقد هلكت .. « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل تتبع ما ألقينا عليه
آباءنا .. أولو كان آبؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .. ومثل الذين
كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء .. صم بكم عمى فهم
لا يعقلون » (٢)

وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا
آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون .. قال : أولو جئتمكم بأهدى مما وجدتم
عليه آباءكم ?? قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون (٣)

وتوحيد الله إفراده بالوحدانية : فهو سبحانه واحد فى ذاته وصفاته
وأفعاله .. وهو الذى يجب أن يفرد — إذن — بالعبادة .. وأن يرد إليه
أمر الحكم والتشريع وحده .. « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه
ذلك الدين القيم .. » (٤) « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك
عليهم حفيظاً » (٥) — فهى — إذن — قواعد ثلاث : توحيد ذاته ، توحيد جهة
العبادة ، وتوحيد جهة الحكم والتشريع :

(١) سورة الأعراف ١٣٧/٧ .

(٢) سورة البقرة ١٧٠ / ٢ ، ١٧١ ، (٣) سورة الزخرف ٤٣ / ٤٣ ، ٢٤

(٤) سورة يوسف ١٢ / ٤٠ (٥) سورة النساء ٨٠ / ٤

فالقاعدة الأولى : وهي الاعتقاد فيها إلهاً واحداً يسوق القرآن لها كثيراً من الأدلة التي تثبت أنه خالق السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن وهو لذلك إله واحد .

ولنأخذ مثلاً لذلك من سورة الانعام : فهي تبين أنه سبحانه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وخلق الإنسان من طين وله ما سكن في الليل والنهار .

فكيف يكون له شريك في الملك : « قل أغير الله اتخذ ولياً . فاطر السموات والأرض . . وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

وهو المسيطر والمهيمن والحكيم والخبير . . وإذا كان الكافرون يشهدون أن مع الله آلهة أخرى فالرسول عليه السلام . مأمور أن يقول : « لا أشهد قل : إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون » فهوؤلاء سيندمون على شركهم « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون !!

ومرة أخرى يبين إبداعه في خلق عوالم الطير وأنها أمم أمثالكم ولكن المكذبين صم وبكم في الظلمات لا يذكرون خالقهم إلا إذا مسهم الضر أو أتتهم الساعة : « قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون »

والله - أيضاً - عنده مفاتيح الغيب . . لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر . . نعم علمه محيط ودقيق : « ما تسقط من ورقة إلا يعلمها » وكم عدد الأوراق التي تسقط في أنحاء الأرض !!

« ولا حبة في ظلمات الأرض » وكم هذه الحبات ومن يحيط بها عدا ؟؟

« ولا رطب ولا يابس » وكم هذا الرطب وكم هذا اليابس ؟

وهذه آياته في منامكم بالليل والنهار وكل خاطرة يعلمها وحده ويعلم ماجرحتم بالنهار . وهو القاهر فوق عباده . وهو الذي ينجيكم من كل كرب ثم أتم تشركون .

وهذا إبراهيم عليه السلام يطلعه الله على ملكوت السموات والأرض :
فيجاري قومه ليثبت لهم ضلال ما هم فيه وقد كانوا عبدة كواكب وأصنام :
فهذا النجم المضيء سرعان ما أفل وذلك القمر الساطع لم يدم . وهذه الشمس
المشرقة أذنت بالمغيب . وكل ما في الكون يتغير ولا يدوم . ولا بد من مصدر
لهذا الخلق كله . إنه الله الواحد الأحد . لذلك يلتفت إبراهيم إلى قومه قائلاً :
« يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات
والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

ويجادل قومه ولكنه يستمد قوته من الحق الذي بين يديه : « وحاجه
قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء
ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون ؟؟ وكيف أخاف ما أشركتم
ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ ؟ فأى الفريقين
أحق بالأمر إن كنتم تعلمون ؟؟

وربط الأنبياء سار في طريق التوحيد وعلى نهجهم سار الكثير من آبائهم
وأبنائهم لم يشرك واحد منهم بالله ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون .

وجولة أخرى مع دلائل الله الواضحة : فهو فائق الحب والنوى يخرج
الحى من الميت ويخرج الميت من الحى .

وهو فائق الإصباح عن نور النهار المشرق . وجعل الليل للراحة والهدوء
وخلق الشمس والقمر لتنظم أمور الناس حيث يعرفون عدد السنين والحساب
والنجوم تدور في أفلاكها يهتدى بها السائرون في ظلمات البر والبحر . وهذه
النظفة من صلب الرجل إلى رحم المرأة : من أودعها خصائصها وبث فيها الحياة ؟؟

والأمطار الهاطلة بقدر . . . وتلك الخضرة البديعة وهذا الحب المتراكم . . .
والنخل من طلعهما قنوان دانية وتلك الحدائق الغناء من الأعناب والزيتون
والرمان . . . فهل تبقى بعد ذلك حجة لمشرك؟؟؟

ومع ذلك « جعلوا لله شركاء الجن . وخلقهم . وخرقوا له بنين وبنات
بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفنون بديع السموات والأرض . أنى يكون له
ولد ولم تكن له صاحبة؟؟ وخالق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله
ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل
شيء وكيل . »

وبعد هذا البيان الواضح تبقى مهمة الرسول : البلاغ . . . والتمسك بالحق
الذى بين يديه والإعراض عن المشركين : « اتبع ما أوحى إليك من ربك
لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . »

ومثل آخر لتوحيد الله من سورة « النحل » :

فهي تبدأ بانذار المشركين وتهديدهم وتنزيه الله عن قولهم الباطل وإدعائهم
الآثم : « أنى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون . »

وتسوق الدليل متنسقاً مع الفطرة بعيداً عن تعقيدات المتكلمين وشطحات
الفلاسفة ، دليلاً بسيطاً ولكنه ضخم فيما يحمل من قوة المنطق ونصاعة الحججة
والبرهان .

من خلق السموات والأرض بالحق؟؟

من خلق الإنسان من نطفة فكانت هذه المفارقة بين النطفة والإنسان
الخصيم المبين .. « تعالى الله عما يشركون » ! !

نعم . . . تعالى عما يشركون فهو الخالق لكل شيء . . . الأنعام وما فيها من
متعة وراحة ومنفعة وما يؤدي وظيفة الأنعام في الراحة والمتعة والجمال على

تعاقب الأجيال والأزمان : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » .

والماء ينزل من السماء فتكون به الحياة .. منه شراب ومنه شجر « ينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات » .

والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرة كلها بأمره .. وما خلقه في الأرض على اختلاف ألوانه من أجل مصلحة هذا الإنسان والبحر وما فيه من حياة وما يستخرج منه من أنواع الزينة .. والفلك التي تمخر عبابه تبتغي من فضل الله ورزقه وما أودعه الله في هذا الماء من خصائص تيسرت معها كل هذه المنافع .. والجبال رواسي لئلا تميد بنا الأرض ، وما ألقى في هذه الأرض من أنهار وما جعل فيها من طرقات وما بث فيها من علامات جعلت حياة النوع الإنساني سهلة ميسورة .. فكيف بعد هذه الدلائل يكون إشراك ؟ ؟

وكيف يتساوى الخالق بالخلق ؟؟ وصاحب كل نعمة بمن لا يمتلك لنفسه تقواً ولا ضراً ؟ ؟

« أمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » .

وكيف يتعدد الإله فتكون معه آلهة ؟ ؟ ألا إنه إله واحد ولكن الذين لا يؤمنون بالآخرة يستكبرون عن الحق وجزاؤهم العذاب في الدنيا من حيث لا يشعرون « ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائ الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين » !!

وكل انصراف عن هذا المبدأ لا يفيد وكل تعلقة للإشراك هنا لا تقبل حتى ولو كانت مشيئة الله ذاته فهو — سبحانه — قد أوضح الحق ودل على الطريق ودعا إلى الهدى ولا عذر لمعتذر .. وما على الرسول إلا البلاغ المبين : « وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ونحن ولا آبؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء .. كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسول إلا البلاغ المبين » ؟ ؟

نعم لا عذر لمعتذر فقد قال الله : « لا تتخذوا إلهين إثنين . . إنما هو إله واحد فايأى فارهبون . . وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً . . أفعير الله تتقون ؟ ؟ »

والمشركون يتبرأون من شركائهم حين يرون العذاب : « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ، وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك . . فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون . »

وحزب الشيطان هم هؤلاء المشركون . . يوجههم الشيطان ويسيطر عليهم أما المؤمنون الموحدون فهم متحررون من رجسه ووساوسه : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . »

وطريق عبادة الله وحده طريق الأنبياء . . هذا إبراهيم — عليه السلام — كان أمة جامعة للخير مخلصاً له قلبه : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله . . حنيفاً . . ولم يك من المشركين . »

ورسولنا — ﷺ — مأمور بالسير فى طريق هذا التوحيد الناصح : « ثم أوصينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . »

وإذا كانت هذه سورة التحل تبين التوحيد الخالص فالقرآن ملىء بتقرير هذه الحقيقة : فان أفراد الله وحده بالألوهية تنافى ما تعارفت عليه الأجيال المشركه وأهل الملل والنحل الضالة .

فالذين ألهوا عيسى بن مريم : مشركون . . « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . »

ومن يأكل الطعام ويقضى حاجته محتاج لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعا . .

فكيف يكون إلها؟ لذلك حكم الله عليهم بالكفر فقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم .. قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً » .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح : يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم .. إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من أنصار » .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم يذكرهم عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » .

وناداهم بالأبغلوفا في ادعاء الألوهية لعيسى : يقول سبحانه : يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد . له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلًا . . إن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً « (١)

واليهود كالمسيحيين مشركون بالله : « وقالت اليهود عزيز ابن الله . . وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل .. قاتلهم الله أنى يؤفكون » (٢)

وعبدت الشمس مشركون : وفي قصة هدهد سليمان ما يوضح ذلك . . يقول القرآن بلسان الهدهد عن بلقيس وقومها : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون

(١) سورة النساء ٤ ١٧١، ١٧٢

(٢) سورة التوبة ٩/٣٠

ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون
وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ؟؟ (١) .

ويوجه القرآن عبدة الكواكب إلى الحق الواضح : فان الكواكب آية
من آيات الله وليست آلهة تعبد : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر
لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه
تعبدون » (٢) .

كثير من آيات الكتاب المبارك تسهب في البحث عن مواطن هذا الداء
لتستأصله من النفوس . ولا يتسع المقام لشرحها وفما قدمناه من أمثلة كاف
في بيان هذا النوع من الشرك وأنه عبادة إله أو آلهة أخرى من الأصنام
والكواكب والأشخاص وغير ذلك مع الله . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

أما النوع الثاني من أنواع الشرك فهو مرتبط بالنوع الأول :
إذ أن من ادعى إلهاً آخر غير الله أو معه يقيم لهذا الإله مراسيم العبادة
والنسك ويقدم لإلهه أنواع القرابين ويعتقد فيه النفع والضرر .

وهذا الانحراف يكلف أصحابه كثيراً من أموالهم ونفوسهم ويجعل
حياتهم قلقمة تعسه لا يسودها استقرار ولا يوجهها عدل الإله الحق ويسره .

وهذا كتاب الله يظهر هذه الحقيقة ويجعلها مع الحقيقة الأولى — وهي
ادعاء مع الله إلهاً آخر — شيئاً واحداً . . . ويستعمل نفس التعبير الذي
أورده فيمن ادعوا مع الله إلهاً آخر .

فهذه مسألة الذبح تبدو في ظاهرها هينة سهلة حين لا يذكر الذابح عليها اسم
الله .. ولكنها تعنى في الواقع قبول الإسلام أو رفضه .

(١) سورة النحل ٢٧، ٢٤ - ٢٦

(٢) سورة فصلت ٤١، ٣٧

وفي سورة مكية هي سورة الأنعام تتوالى الآيات لتبين مدى الخطورة في عدم ذكر الله على ما يذبح وتقديم الشعائر لغير الله أو لإله آخر مع الله . . ويصف القرآن هؤلاء بأنهم يضلون بأهوائهم بغير علم وأنهم معتدون على حق الله وأنهم يرتكبون الآثام وأن ذلك فسق . . وأنهم شياطين . وأموات . ومجرمون وضالون عن الطريق . وظالمون : بل مجرد إطاعة المؤمنين لهؤلاء في بهتانهم إشرارك : « ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . وإنه لفسق . . وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . ويعرفهم أن ما يصنعونه بالحرث والأنعام حكم ظالم جائر ليس له نصيب من العقل : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله برعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون . »

وهذه العادات تكلفهم كثيراً من حياتهم . بل من فلذات أكبادهم وليس لذلك أساس من العقل أو النقل إلا محض الافتراء والجهالة العمياء . أنظر إلى قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سعتها بغير علم وحرموها ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين . »

وتبحث الآيات عن هذا الضلال الذي خطط له شياطين الإنس والجن فلا نترك لهم منفذاً حتى مجرد التعلل بما قدره الله . مما يدل على أن الله اعتبرهم مشركين رغم اعترافهم به واستنادهم في تحريمهم وتحليلهم وعاداتهم وتقاليدهم إلى قدر الله سبحانه فالقرآن يقول : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله

ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون .

بل إن الذين أشركوا مع الله إلهاً آخر عدلوا عن طريق الحق وسوا خالفاً بمخلوق ففي بداية السورة : الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

وهناك في موقف الاعتراف به إلهاً واحداً يدعوا إلى الإشهاد على هذه الحقيقة فيقول : « قل أى شيء أكبر شهادة ؟؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لا نذركم به ومن بلغ أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟؟ قل لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد وإننى برى مما تشركون . »

وهنا في مسألة تقديم شعائر العبادة لغير الله مع الاعتراف به إلهاً يطلب الإشهاد على تحريم هذا الإشراف ويتبرأ من هذا الضلال ويعتبرهم غير مؤمنين بالآخرة .. وبربهم يعدلون فيقول : « قل لهم شهداء كم الذين يشهدون أن الله حرم هذا .. فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون . »

ويأمر رسوله أن يعلن أن الحياة كلها لله : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . »

أما النوع الثالث من أنواع الشرك فهو تلقي الشرائع والأحكام من مصدر آخر غير المصدر الإلهى .

ومن واجبتنا أن نقف أمام هذا اللون من الشرك نزيل ماران عليه من جهل القرون حتى يشرق الصبح لذى عينين ويعرف كل طريقه فيضع قدمه على أرض صلبة لا تميد .

ومن البدييات ان المشرك كافر لأنه ستر الحق وأظهر الباطل .

وظالم لأنه أنكر الحق الواضح

وفاسق لأنه خرج عن الطريق المستقيم

وإن .. فإدانة الكفر التي تكررت في القرآن كثيراً حتى بلغت ٥٢٥ مرة
«باشتقاقاتها المختلفة تضاف لمن أشرك بالله . والظلم الصريح هو هذا الشرك : يابى
تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»^(١).

والشرك هو التمسق بعينه : لذلك نزل العذاب بالفاسقين : « فاليوم تجزون
عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون»^(٢).

« فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون »^(٣).

« إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون »^(٤).

وقابل الله بين المؤمن والفاسق فقال : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟
لا يستون »^(٥).

وقال : « يتأس الاسم التمسوق بعد الإيمان »^(٦).

وسوى المنافقين بالفاسقين — والمنافق يتساوى بالكافر لذلك جمعهم الله
في النار فقال : « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً »^(٧).

(١) سورة لقمان ٣١ / ١٣ .

(٢) سورة الأحقاف ٤٦ / ٤٠ .

(٣) سورة البقرة ٢ / ٥٩ .

(٤) سورة العنكبوت ٢٩ / ٣٤ .

(٥) سورة السجدة ٣٢ / ١٨ .

(٦) سورة الحجرات ٤٩ / ٧ .

(٧) سورة النساء ٤ / ١٤٠ .

كما يقول القرآن :

- « نسوا الله فأنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون » (١)
 - « إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » (٢)
 - « فان رضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .
- ونفى الإيمان عن إنسان أو جماعة في مدلوله العام يساوي الشرك كما يساوي الكفر .

ومئات المرات التي تكرر فيها لفظ الإيمان مقابلاً للكفر يثبت أن غير المؤمن كافر .. مشرك بالله ..

يقول القرآن في المقابلة بين الكفر والإيمان : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فأعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره . إن الله على كل شيء قدير » (٣) .

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً » (٥) .

ولإمطة اللثام عن هذا اللون من الشرك الذي لا يعرفه إلا قلة من الناس هي التي فقته كتاب ربها وعرفت حدوده وأحكامه — فنزل آيات الكتاب المبارك في سورتين تشرح هذه الحقيقة وتؤكد كدها :

هذه سورة النساء مدنية تشمل على كثير من الأحكام التي شرعها الله : في اليتامى والنكاح والميراث وغير ذلك وتعقب على هذا بقوله تعالى : « تلك حدود الله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده

(١) سورة التوبة ٩ / ٦٧ ، ١٨٤ .

(٢) سورة التوبة ٩ / ٩٦ .

(٣) سورة البقرة ٢ / ١٠٩ .

(٤) سورة آل عمران ٣ / ١٧٧ .

يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » . والخالد في النار هو الكافر المشرك .

والسورة بعد أن تبين جملة أخرى من أحكام الله في ميراث النساء ومهورهن والمحرمات منهن وحكم المحصنة وغير المحصنة إذا أتت الفاحشة وقيادة الأسرة . ولئن تكون مطلب السورة منا أن ننفذ هذه الأحكام المخالدة .

فهذه عبادة الله وإلا فهو الإشراف حين ينقاد الإنسان وراء الجهل والحمق . ورفض تعاليم ربه وذلك إذ تقول الآية : « وابدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » .

ثم تواجه الآيات أهل الكتاب وتعرضهم للأبصار وهم يشترون الضلالة ويريدون أن يضلوا السبيل يحرفون الكلم عن مواضعه . . وهم لا ينكرون وجود الله إنما رفضوا شريعة الإسلام . تركوا شريعة التوراة فكانوا مشركين . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » .

وفي جرأة الحق تنادى المؤمنون أن يطيعوا الله ورسوله وإلا فلا إيمان . ولا إسلام إنما هو الإدعاء الباطل حين يتحاكم الناس إلى الطاغوت الذي يفرض سلطانه على النفوس فيلغى من علي أرض الله أحكام الله ويحكم الناس بالهوى والجهل والباطل والناس مأمورون أن يفروا ويكفروا بهذا الطاغوت . ولكنه يريد أن يضلهم ضلالاً لا بعداً .

إن ادعاء الإيمان بأنهم أن يتحاكموا إلى شرع الله ودينه ويصدون عن هذا الدين صدوداً عظيماً . والله لم يرسل رسلاً إلا لهداية البشر وإلا ليطاع الرسول باذن الله فان رجعوا عن شركهم وعنادهم وجدوا الله تواباً رحيماً . ثم يعلق الإيمان على تحكيم كتاب الله ويقسم على ذلك القسم المؤكد . وليكن مع تنفيذ أحكام الله التسميم المطلق له والشعور بالرضا والسكينة تغمر الكيان الإنساني حين ينفذ أحكام العليم الخبير الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

ولنستمع إلى كتاب الله يجمع كل هذه المعاني المخالدة فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً . ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً : وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول . رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فكيف إذا أصابهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً . »

ومع طاعة الله ورسوله وقيمة هذه الطاعة ومدلولها على قبول الإسلام أو رفضه تسيير الآيات تبين مواقف أهل الحق وأهل الباطل :

« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » وإن « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » وأن هذا الجهاد كله إنما هو لإقرار شرع الله وعدله الرحيم في الأرض فلم ينزل هذا القرآن لاهوتاً وطقوساً وجملة من الشعائر تؤدى . إنما نزل ليكون دستور الحياة . ليصوغ الحياة وليصنعها بصناعة المحبة والعدالة . لم ينزل هذا القرآن للاموات والتمائم والتعاويد والمناسبات إنما جاء ليبارك الحياة ويزكيها وينميها ويغرس فيها السمو الرباني ويرتفع بها إلى مركز الخلافة عن الله . تقول سورة النساء : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » .

نعم . . فهذه الجولة الواسعة في الجهاد والمجاهدين والاستشهاد في سبيل الله

إنما كانت كلها حرباً للطاغوت والطغيان وإقراراً لدين الله ليحكم الحياة بمفهومه ومدلوله وأنواره ولكن أهل الباطل يحاربون الله ورسوله وهم مخدوعون وهم ضعاف : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

نعم .. هؤلاء المسترعون شرعاً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الهدى اتبعوا غير سبيل المؤمنين .. اتبعوا أهوائهم وشياطينهم الذين قعدا لهم القواعد وشرعوا لهم أحكاماً في الأنعام والذبائح وغيرها ، هؤلاء مشركون « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً » .

أشركوا لأنهم اتبعوا هذا الشيطان الذي أملى عليهم هذا الضلال « ولأمرهم فليستكن آذان الأنعام ولأمرهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

وتمزج سورة النساء بين من رفضوا أحكام الله ومن ادعوا مع الله إلهاً آخر ومن ألهوا عيسى بن مريم فالكل سواء في إنكار ما أنزل الله .. وماذا يفيد كفر هؤلاء بعد هذه الشهادة الربانية لرسول الله : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك .. أنزل بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » .

إنه النور الهادي والمصباح المضيء للناس . لكل البشر : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » .

إنه البيان الواضح لثلاث نضل . إنها الأحكام الخالدة من الحكيم العليم : « بين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم » .

وهذا برهان جديد تقدمه سورة المائدة وذلك إذ تتحدث عن أهل الكتاب فتبين كفرهم وضلالهم وتبين حكم الله فيمن رفض حكم رسول الله .. وتعمم

القضية في كل من لم يحكم بما أنزل الله بأنه ليس من المؤمنين وأنه كافر .. ظالم .. فاسق .. وأن حكم البشر حكم الجاهلية ومن واجب المؤمنين ألا يتخذوا اليهود والنصارى أولياء يوالونهم بالمودة ويحكمون أهواء الكفار وعاداتهم وتقاليدهم في حياة الجماعة المؤمنة ، فاليهود والنصارى حزب واحد والكفر ملة واحدة : « بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

ولنستمع إلى آيات الله بقلوبنا لنذكر هذه الحقيقة دون لف أو دوران . تقول الآيات : « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله .. ثم يتولون من بعد ذلك .. وما أولئك بالمؤمنين .. إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .. وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور .. ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين .. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا .. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .. ولكن ليلوكم فيما آتاكم .. فاستبقوا الخيرات .. إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .. وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون .. أتحكم الجاهلية بيغون ؟؟

« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟!

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

ولا بد أن نلاحظ الفرق بين يحكم (بفتح الباء وبضم الكاف) ويحكم (بضم الباء وفتح الكاف) فالذى يحكم بغير ما أنزل الله هو الكافر وهو الظالم وهو الفاسق لكن ما ذنب من يحكم بغير ما أنزل الله ؟ ما ذنب الشعوب التي يتسلط عليها حكامها ورؤسائها وقادتها ؟ هل مجرد تلك الشعوب المغلوبة على أمرها من صيغة الإسلام ؟ هل تهمها بالكفر والفسوق والظلم ؟ إن النظرة الواعية تجعلنا نفرق بين حاكم ومحكوم وغالب ومغلوب ، فلا نحمل المحكوم والمغلوب شيئاً ليس في مقدوره ، ولا نزميه بالخروج على دين الإسلام إلا إذا رضي عن حكم غير الله وأعتقد أن هذا هو الحق وشارك قاداته وحكامه عنادهم لشريعة الله وإصرارهم على رفض العمل بها وحرهم لحملة لوائها . . في هذه الحالة يقول إنه شريك في الحكم : وداخل في قول الله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

وإذا ما وصلنا الحديث حول سورة المائدة لنعرض منها نماذج لمن حكم بغير ما أنزل الله فحكم عليه بالكفر والافتراء والظلم فسئرى أن السورة تتحدث عن أهل الكتاب وأن الله جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » .

ويناديهم رب العزة فيقول : « يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين » .

وكما سمي الله أهل الكتاب مشركين وكافرين سمي هؤلاء الذين اخترعوا شريعة من عند أنفسهم في حياتهم الاجتماعية كفاراً فقال : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . . ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » . .

ولا ننسى ما أوردته سورة الأنعام وهي تتحدث عن المشركين وعاداتهم وتقاليدهم . . وهؤلاء الذين اصطنعوا لهم تلك العادات والتقاليد فكلفتهم الشيء الغالي من حياتهم واستمعوا لهذه الآلهة التي شرعت لهم هذه الأحكام فسوقوا خالقاً بمخلوق . . فبئس ما يفترون .

وهذا حديث عدى بن حاتم يضيف تأكيداً جديداً لهذا النوع من الشرك ويبين بوضوح أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج صاحبها من الدين :

« أخرج الترمذى بإسناده عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغه دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته فأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم وفي عنقه صليب من فضة والنبي — ﷺ — يقرأ هذه الآية : « اتخذوا أجبازهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وقال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : بلى . إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا الحرام فاتبعوهم وذلك عبادتهم إياهم .

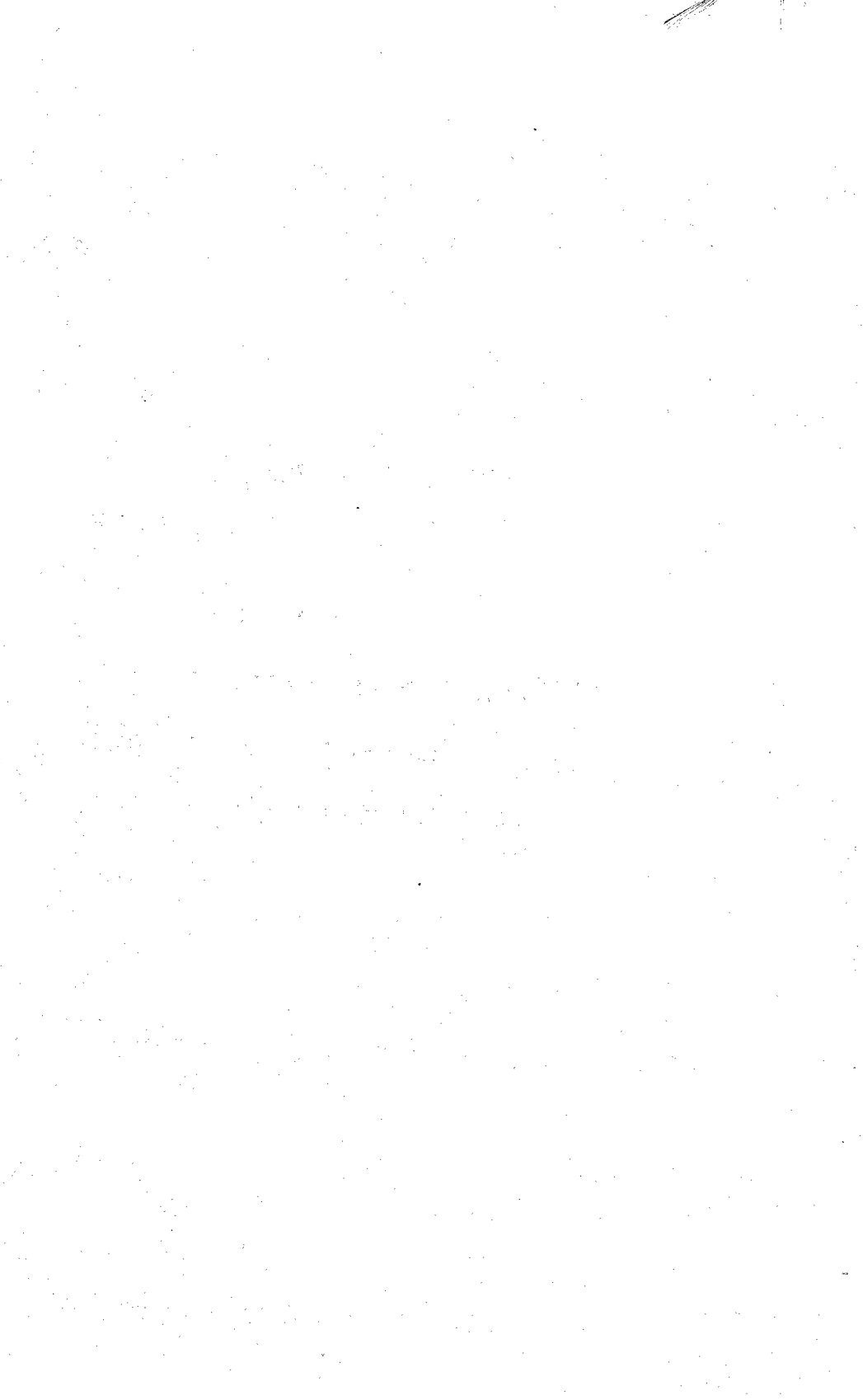
ولا أظن إلا أنه بعد بيان لفظ الشرك ودراستنا للآيات التي اخترناها نماذج للمقارنة والتحليل قد تبين لنا : ماذا يراد بالشرك : وأن الشرك بالله : عبادة إله أو آلهة أخرى غير الله أو معه من بشر أو حجر أو كوكب أو غيره وهذا كالشرك بالله حين يتقدم الإنسان بالطاعة والقربى لغير الله وهما كالشرك بالله في اتخاذ مصدر للتشريع والتقنين غير المصدر الإلهي . . كل هذه الثلاثة تتساوى في الخروج من طاعة الله ووحدايته إلى أرباب مختلفة . . وكلها في حاجة إلى الإجابة إلى الله والاستجابة إلى هذا النداء العلوى الجميل :

« قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم — ألا تشركونا به شيئاً » .

الوصية الثانية :

« وبالوالدين احسانا »

- ١ — ماذا يقصد بالإحسان ؟
- ٢ — لماذا طالب بالإحسان ولم يكتف بالنهي عن الإساءة ??
- ٣ — فضل الوالدين — وما ورد في ذلك .
- ٤ — بر الوالدين ليس خاصاً بحياتها ولا بالمسلمين .



١ - ماذا يقصد بالإحسان؟

الإحسان أرقى درجات الأعمال وأعلاها منزلة ، وهو وليد الإيمان وقمة الإسلام ، يتضح ذلك من حديث جبريل وهو يسأل رسول الله ﷺ : فقد سأل عن الإسلام فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ، وسأل عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . وسأله عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

فالإحسان أداء العمل مع المراقبة الكاملة لله طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه وحياء من عظمتهم ومراعاة لشكر نعمته ووفاء لحق ربوبيته . وهو بذلك صلة قوية متينة تنبع من قلب طاهر يفيض رحمة وإخاء وحباً وعظفاً . وهذا الإحساس النبيل يربط الإنسان بالخالق جل وعلا فيعلم أن بر الناس بر الله . ففي الحديث القدسي عن رب العزة : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدني فيقول ابن آدم : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلان مرض فلم تعده أما إنك لو عدتني لوجدتني عنده . يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني . فيقول يارب : كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلان استطعمك فلم تطعمه أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني . فيقول : كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي » (١) .

والله لا يحتاج إلى بر أحد واكفنه جعل الخلق عياله . وبرهم بره . والإحسان

والتصدق على الفقراء قرضاً له تعالى : فيقول القرآن الكريم : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم » (١) .

والإحسان لا يقف | مضمونه عند حد من الحدود بل هو متنوع الصور والأشكال ومتعدد الطرق والمقاصد . والقرآن الكريم يقدم الكثير من الأمثال على ذلك : فعندما تقرأ قوله تعالى : « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » (٢) .

فالإحسان هنا : طاعة الله وجزاؤها المغفرة والثواب وزيادة الأجر .

وحينما تندبر قوله تعالى : « وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذو القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون » (٣) .

ندرك أن الإحسان هنا بأجلى معانيه وأنبى صورته . في معاملة الناس معاملة حسنة وذلك بالقول الطيب والكلام اللين الذي يؤلف بين القلوب وفي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

وحينما نقف عند قوله تعالى : « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » (٤) .

نعرف أن المراد بالإحسان هو الإلتحاق وبذل المال في سبيل الله والمحافظة على النفس من مهلكات الشح ودفعها إلى مواطن الجهاد .

(١) سورة الحديد ٥٧/١١ .

(٢) سورة البقرة ٥٧/٢ .

(٣) سورة البقرة ٨٣/٢ .

(٤) سورة البقرة ١٩٥/٢ .

كما قد يقصد بالإحسان : المروءة وأداء الواجب عن طواعية واختيار كما في قوله تعالى : « لاجتاح عليكم إن تطلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفضوا لهن فريضة ومتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين » (١) .

كذلك الإخلاص وحسن النية ومداومة فعل الخير سبب للنجاة والرفعة وكلها نابعة من الإحسان . فهذا يوسف يقول لإخوته وهم يسألونه : « أإنيك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (٢) .

والأنبياء .. جازاهم الله خير الجزاء لأنهم أحسنوا في تبليغ الرسالة : « ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين » (٣) .

وهذا القرآن « هدى ورحمة للمحسنين » (٤) .

والله دائماً مع المحسنين : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » (٥) .

والإحسان سبب السعادة في الآخرة فالله يقول عن المتقين : « آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » (٦) .

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٣٦

(٢) سورة يوسف ١٢ / ٦٠

(٣) سورة الأنعام ٦ / ٨٥

(٤) سورة لقمان ٣١ / ٣

(٥) سورة العنكبوت ٢٩ / ٦٩

(٦) سورة الذاريات ٥١ / ١٦ - ١٨

٢- لماذا طالب بالاحسان ولم يكتف بالنهي عن الاساءة؟

من هذا نرى أن آيات القرآن ناطقة بما تحمله كلمة الاحسان من معان خالدة: جماع هذه المعاني أن الإحسان هو : الخير كله وأن الصفات التي تتوق إليها الإنسانية من الحب والعطف والرحمة والسلام والمودة الحانية والبر العطوف تحملها كلمة الإحسان . لذلك حينما أوصى الله بالوالدين لم يكتف بالنهي عن الاساءة إنما أمر بالإحسان اليهما وهو كما يقول الامام القرطبي : برهما وحفظهما وصيانتها وامثال أمرها وإزالة الرق عنهما وترك السلطنة عليهما « (١) .

وما ذلك إلا لأن للأبوين فضلا عظيما ومنزلة عالية . ورباط الأبوة بالنبوة هو رباط البشرية بأجياها المتلاحقة إن لم يقيم على الإحسان تفككت عرى المحبة والألفة ونشبت العداوات وامتلات الصدور بالضغائن . لذلك جعل الله الوصية بالوالدين بعد النهي عن الاشراك به وإفراده وحده بالرؤية لما لهذه الصلة القوية من أثر فعال في انتظام الحياة . فهي وحدة الانسانية تقوم بعد وحدة الإله . وهو اتجاه واحد يبنى عن علم العليم الخبير : إذ أن حب البقاء يدفع الانسان إلى إفراغ محبته في ذريته وولده . يرى في نسله امتداداً لحياته وإحياء لذكراه ولهذا حذر المولى سبحانه من هذا الحب الذي كثيراً ما يطغى وينسى صاحبه دينه ورببه قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » (٢) .

وقال : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » (٣) .

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن الكريم ص ١٣٢ ج ٧ ط الثانية

دار الكتب .

(٣) سورة التغابن ٦٤ / ١٤

(٢) سورة المنافقون ٦٣ / ٩

أما الأبوان : فرجعة إلى الماضي ونظرة إلى الوراء .. بذلا حياتهما من أجل إسعاد ابنتهما وأحاطاه بالشفقة والمحبة وأولياه كثيراً من النعم . ولكن كيف يذكر ذلك ؟ نعم إن فضلها عليه عظيم وفضلها يلي فضل الله تعالى في الإيجاد وإخراج المرء إلى الحياة .. يقول الفخر الرازي : إن من الأشياء التي أوجبها ههنا قوله تعالى : وبالوالدين إحسانا .. وإنما نبي بهذا التكليف لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله تعالى ويتلوها نعمة الوالدين لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله سبحانه وفي الظاهر هو الأبوان ثم نعمهما على الإنسان عظيمة وهي نعمة التريبة والشفقة والحفظ من الضياع والمهلك في وقت الصغر^(١) .

٣ - فضل الوالدين .. وما ورد في ذلك ؟

نعم يذكر الإنسان ما للوالدين من فضل بالتذكير المستمر وبيان ما للوالدين من أيد وآلاء وما في قطيعتهما وعقوقهما من عقاب وبلاء : لقد جاءت الوصية بهما بعد الوصية بعبادة الله وحده قال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » .

والقضاء هو الأمر الحازم الواجب التنفيذ .. وتعقب الآية على ما يجب القيام به إزاء الوالدين فتقول : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً » .

حتى هذه الكلمة « أف » وهي الإشارة إلى الضجر والتألم من خدمتهما والتأفف من كبرها منهي عنها تماماً .. إنما لا بد من الكلمة الرقيقة والمعاملة الحسنة والابتسامة الحلوة « وقل لهما قولاً كريماً » .

وإن الزلة ليست من شأن المؤمنين ولكن التذلل للوالدين أمر مفروض

في الاسلام : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وسبب هذا كله رحمة القلب المؤمن بهذا الانسان الضعيف الذي أفتى حياته كدأً وتعباً وترية لابن . وجب عليه الاحسان وحق عليه أداء الواجب .

هذا كله مع الدعاء لهما في الحياة وبعد الممات « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » ومع الاخلاص في الخدمة وأداء هذا الحق : حق الله إوحق الأبوة حتي تكون لهذا الاخلاص مغفرة الله وعونه : « ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفوراً » (١) .

وفي سورة النساء : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار نى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (٢) .

فهم أول من تجب صلته ، وهم مقدمون على القريب واليتيم والمسكين والجار وابن السبيل والرقيق .

وهذا المعنى نجده — أيضاً — في قوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » (٣) .

وفي قوله تعالى : « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما فعلوا من خير فان الله به عليم » (٤) .

فهم أول من تجب له الوصية وأول من يجب له بذل الخير . بل ويجعل الله شكر الوالدين تالياً لشكره هو فيقول : « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » (٥) .

(١) سورة الاسراء ١٧ / ٢٣ — ٢٥ (٢) سورة النساء ٤ / ٣٦

(٣) سورة البقرة ٢ / ١٨٠ (٤) سورة البقرة ٢ / ٢١٥

(٥) سورة لقمان ٣١ / ١٤

وبر الوالدين من صفات الأنبياء :

لهذا يحيى عليه السلام يقول الله في صفته : « وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً » (١) .

وهذا عيسى — عليه السلام — ينطق في المهد قائلاً : « وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيماً » (٢) .

وهذا رسولنا بين منزلة الوالدين ويؤكد ما جاءت به وصايا القرآن الكثيرة بالاحسان إليهما :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يجزى ولد عن والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه » (٣) .

وعنه عن النبي ﷺ قال : « رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة » (٤) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : « أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الصلاة إلى وقتها .. قلت ثم أى ؟ قال : بر الوالدين .. قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » (٥) .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : كان تمنى امرأة وكنت أحبها . وكان عمر يكرها فقال لى : طلقها .. فأبيت فأتى عمر رضي الله عنه النبي ﷺ فذكر له فقال النبي ﷺ : « طلقها » (٦) .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً أتاه فقال : « إن لى امرأة وإنه

(١) سورة مريم ١٩ / ١٣ ، ١٤

(٢) سورة مريم ١٩ / ٣٢

(٣) رواه مسلم (٤) رواه مسلم (٥) متفق عليه

(٦) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وفي رواية : يا رسول الله من أحق بحسن الصحبة ؟ قال : أمك ثم أباك ثم أدناك « (١) .

وجاء وعيد القرآن لمن قطع رحمه وعيداً شديداً :

قال تعالى : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » (٢) .

وجاء بيان الرسول مؤكداً ما للوالدين من رفيع المنازل التي يجب أن تصان وتحفظ : فعن أبي بكر : نفيح بن الحرث رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر — ثلاثاً — قلنا : بلى يا رسول الله قال : الإشرak بالله وَعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور .. فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت « (٣) .

بل إن رسولنا عليه السلام علمنا أن نتباعد عن كل ما يجرح كرامتهما أو ينزل من قدرهما : « فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال . من الكبائر شتم الرجل والديه .. قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم : يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه .. وفي رواية : إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قال يا رسول الله : كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه « (٤) .

(١) متفق عليه .

(٢) سورة الرعد ٢٥/١٣

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

٤ - بر الوالدين ليس خاصاً بحياتهما ولا بالمسلمين

وهذا الاحسان ليس خاصاً بحياتهما ولا بالمسلمين : فرابطة المودة باقية في الحياة وبعد المات . . بالدعاء لهما : رب اغفر لي ولوالدي وللمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات « (١) .

« رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (٢) .

وبصلة أصدقائهما فقد ورد عن ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذ أمل ركوب الراحلة وعمامة يشد بها رأسه فينما هو يوماً على ذلك الحمار إذ مر به أعرابي فقال : ألسنت فلانا ابن فلان؟ قال : بلى فأعطاه الحمار فقال : أركب هذا . . وأعطاه العمامة وقال : أشدد بها رأسك فقال له بعض أصحابه : غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تتروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودايته بعد أن يولي . . وإن أباه كان صديقاً لعمر رضي الله عنه « (٣) .

وعن أبي أسيد : مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سامة فقال يا رسول الله : هل بقي من بر والدي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال : نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإتقاد عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما » (٤) .

ورابطة المودة ليست خاصة بالأبوين المسلمين قال تعالى : « وإن جاهدك

(١) سورة نوح ٢٨/٧١

(٢) سورة ابراهيم ٤١/١٤

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أبو داود :

على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً
واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » (١).

وهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : « قدمت أمى
وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : قدمت
أمى وهي راغبة أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك » (٢).

نعم هذه وصية الإسلام بالاحسان إلى الوالدين لتكون علاقات الانسانية
ترابطاً وتراحماً لا يفصل بين أفرادها اختلاف مذهب أو دين ولا يفكك
عراها تباين لون أو جنس إنما هو البر الذى ينبع من قلب رحيم يقدر هذه
الصلة ويؤدى مالها من حقوق .. وهذا هو الدين الذى يغرس أكرم المبادئ
مبادئ الرحمة والاحسان .

(١) سورة لقمان ١٥/٣١ .

(٢) متفق عليه .

الوصية الثالثة .

ولا تقتلوا اولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم

- ١ — معنى الإملاق .
- ٢ — المقصود بالقتل .
- ٣ — كفالة الله للارزاق .
- ٤ — تحديد النسل . . والعزل . . هل هما قتل للولد ??



١ - معنى الاملاق

هذه الوصية تأتي بعد النهي عن الإشراف وبعد أن وصى الله الأنبياء بالآباء لتبين واجب الآباء تجاه الأبناء .

وفي هذه الوصية يجمل بنا أن نعرف : ما معنى الاملاق ؟ وما المقصود بالقتل ؟ وما حكم تحديد النسل والعزل ؟ وكيف تكفل الله بالأرزاق ؟

أما معنى الاملاق :

فكتب اللغة والتفاسير تقول : أملك : افتقر ، وأملقه : أى أفقره .. فهو لازم ومتعدى .

وحكى النقاش عن مؤرج أنه قال : الاملاق : الجوع بلغة لحم ، وذكر منذر بن سعيد أن الاملاق : الاتفاق . يقال أملك ماله بمعنى أنفقته ، وذكر أن علياً رضي الله عنه قال لامرأته : أملكى من مالك ماشئت ، ورجل ملق : يعطى بلسانه ما ليس في قلبه .. فالملق لفظ مشترك» (١) .

قال ابن جرير : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق : ولا تشدوا أولادكم فقتلوه من خشية الفقر على أنفسكم بنفقاتهم فان الله هو رازقكم ورازقهم : والاملاق : مصدر من قول القائل : أملكيت من الزاد فأنا أملك إملاقاً وذلك إذا فنى زاده وذهب ماله وأفلس .. وينقل ابن جرير بإسناده عن ابن عباس وقتادة والسدى والضحاك أن الاملاق : خشية الفقر » (٢) .

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٧ ص ١٣٢

(٢) جامع البيان عن تأويل أى القرآن لابن جرير الطبري ج ١٢ ،

٢ - المقصود بالقتل

والقتل هنا : بمعنى الوأد كما قال السيوطي .. وفي آية الاسراء كذلك
قال العلامة الجمل : « قوله بالوَأْدِ : أى الدفن بالحياة .. والاقتصار عليه لأنهم
كانوا يفعلونه وإلا فقتل الولد حرام مطلقاً » (١).

ويؤكد هذا الفخر الرازي فيقول : « المراد منه (أى القتل) النهي عن
الوَأْدِ إِذْ كَانُوا يَدْفِنُونَ أَحْيَاءَ بَعْضِهِمْ لِلْغَيْرَةِ وَبَعْضِهِمْ خَوْفَ الْفَقْرِ وَهُوَ السَّبَبُ
الغالب » (٢).

وهذا ما جرى عليه ابن جرير والقرطبي في تفسير القتل :

يقول القرطبي : « ولا تقتلوا : أى لا تئدوا - من الموءودة - بناتكم
خشية العيلة فاني رازقكم وإياهم .. وقد كان منهم من يفعل ذلك بالاناث
والذكور خشية الفقر كما هو ظاهر الآية » (٣).

وابن كثير يقول : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق : وذلك أنهم كانوا
يقتلون أولادهم كما سوت لهم الشياطين ذلك .. فكانوا يئدون البنات خشية
العار وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار .. ولهذا ورد في الصحيحين
من حديث عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أنه سأل رسول الله ﷺ
أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت : ثم أى ؟ قال :
أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .. قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزاني حليلة
جارك ثم تلا رسول الله ﷺ : والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون
النفوس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون .. الآية » (٤).

(١) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل ج ٢ ص ٦٢٤ .

(٢) مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازي ج ١٣ ص ٢٣٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ١٨٨ .

(٤) تفسير القران العظيم لابن كثير ج ٢ ص ١٨٨ .

أما العلامة أبو السعود فيربط هذه الوصية بما قبلها ويساير جمهور المفسرين في معنى القتل فيقول : ولا تقتلوا أولادكم : تكليف متعلق بحقوق الأولاد عقب به التكليف المتعلق بحقوق الوالدين أى لا تقتلوهم بالوآد» (١).

٣ - كفالة الله للأرزاق

وقتل الأولاد بالوآد - فوق ما فيه من مخالفة للطبيعة البشرية المحبولة على حب الولد - إنما يرجع إلى بواعث نفسية تطيح بهذا الحب وتقطع هذه الصلة مما يجعلنا نقف هنا نتبين أسباب هذه الجريمة - وكيف عالجها القرآن قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الوآد وألوانه وطرقه ورأى العلماء في كل لون وطريق .

إن الأسباب التي تدعو إلى الأقدام على مثل هذا العمل المتجرد من الرحمة يلخصها القرآن في كلمة واحدة : « إملاق » .

والاملاق - كما سبق بيانه - هو الفقر فاذا ما علمنا أن الموءدة - غالباً - ما تكون أنثى تبين لنا ازدواج الجريمة .. فالبنات ضعيفة لا تستطيع الكسب ولا تساعد على مشقات الحياة وليس مما يتباهى به العربي ويتفاخر إنما كانت مباحاتهم بكثرة الأولاد الذكور .

وقد بين العلماء سبباً آخر لقتل البنات هو العار إذا ما فرطت الفتاة في عرضها .

والسبب الأول هو ما ذكره القرآن فيدخل فيه قتل البنات وقتل الأبناء وإن كان ذلك قليلاً بالنسبة للابناء كما يفهم من عبارة ابن كثير : « فكانوا يكدون البنات خشية العار وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار » .

إذن فهو الفقر وعدم الثقة بما تأتي به الأيام والاضطراب النفسي من كثرة الأولاد : من أين يأكلون ؟ وكيف يزقون ؟ وكيف يتحمل الوالد هذا العبء الثقيل ؟ ؟

وإنه خوف العار وانتهاك العرض ووقوع جريمة الزنا !!

وكتاب الله يعالج هذه الظاهرة الخطيرة في حاضر الانسان ومستقبله ويوجه خطابه للاغنياء الموسرين الذين يخشون وقوع الفقر كما يوجهه لأهل الفاقة ومن يعيشون في البؤس فعلا .

ففي آية الأنعام يوجه الخطاب إلى الآباء المعسرین مبيناً لهم عجزهم وضعفهم وأن رزقهم هم فضل من الله وليس لهم جهد فيه إلا السعى والعمل . . . وإذا رزق الآباء مئة من الله فكيف يقتلون أولادهم وكيف يخافون عليهم الفقر ؟ ؟

فالأية — بذلك — تعالج نفسية مرضية استولى عليها ما هي فيه من شقاء وحاجة .. وغاب عنها أن قوتها وحياتها ملك لله صاحب هذا الكون كله بما فيه ومن فيه .

ولذلك تقول الآية : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم فقدمت رزق الآباء على رزق الأبناء ويذنت سبب القتل وهو الفقر الواقع بهم فعلا .

وفي آية الاسراء الخطاب إلى الآباء الموسرين الذين يخافون كوارث الدهر ونكبات الزمن ويخشون الفقر .. لذلك استعمل لفظ « الخشية » وقدم ذكر الأولاد فيها فقال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

يقول العلامة الجمل : « الظاهر من قوله « من إملاق » حصول الاملاق للوالد لا توقعه وخشيته فبدىء أولاً بالعدة برزق الآباء بشارة لهم بزوال ما هم فيه من الاملاق .. وأما في آية الاسراء فظاهاها أنهم موسرون وإنما يخشون الفقر ولذلك قال : « خشية إملاق » وإنما تخشى الأمور المتوقعة

فبديء بضمان رزقهم فلا معنى لتكلم إياهم . . فهذه الآية تفيده النهي للاباء عن قتل الأولاد وإن كانوا متلبسين بالفقر والأخرى عن قتلهم وإن كانوا موسرين ولكن يخافون وقوع الفقر» (١) .

إنه الإيمان الذي يكسب القلب شعور الأمان ويضفي على صاحبه علامات الرضا والسكينة حين يسلم حياته كلها لله رب العالمين .

والقرآن من أجل غرس هذا الإيمان يؤكده دائماً أن مافي الكون ومن فيه يبره وبحره سمائه وأرضه . غيبه ومشهوره . ملك لله ، ليس لأحد شيء فيه إلا ما كان هبة وتفضلاً منه وحده . فهو واهب الحياة للأحياء وهو الذي يستطيع أن يستردها كيف يشاء وفي أي وقت يشاء .

ومن هذا المنطلق يتحرك المؤمن واثقاً أن الأرزاق جزء من هذه القضية البديهية :

فمن أنبت النبات وأزله الماء من السماء وأدر الضرع من بين فرث ودم وأجرى البحار والأنهار وسير السحاب ورفع السماء وتعهده الجنين في بطن أمه وجعل هذه العوالم المختلفة مما نعلمه ومما لانعلمه ؟

من هذا شأنه لا يعجزه — أبداً — أن يرزق جملة ملايين من الناس .

ولضعف الإنسان وإحساسه — دائماً — بما يقع تحت حسه ولجهله بما يأتي به الزمان وخوفه من مستقبل لا يعرف ما يكون فيه — من أجل هذا يسوق الله تلك الأمثلة الكثيرة ويصرف الآيات وينوعها تطميناً لهذا القلق والاضطراب .

وما كان تكرار مادة « الرزق » بكل مشتقاتها أكثر من مائة مرة وما تحملها كلمة الرزق من معنى البذل والعطاء والتفضل من الجانب الإلهي

وما فيها من الضعف البشري والعجز الإنساني والاحتياج المستمر إلى رازق يده خزائن السموات والأرض .

ما كان هذا إلا توثيقاً لهذا المعنى في النفوس وتحريراً لها من ذل الرق الذي يفقد الإنسان إنسانيته وينزل به إلى مرتبة سافلة تتنافى مع وظيفته كخليفة لله على هذه الأرض .

وهذه آيات القرآن تسوق مسألة الرزق مع غيرها من نوااميس الحياة التي وضعها الله للإنسان . يقول القرآن : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون » (١) .

ويقول : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفنعمه الله يجحدون ؟ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيات . أفتالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » (٢) ؟

فالذي خلق وأمات وأحيا وجعل من الأنفس أزواجا ومن الأزواج بنين وحفدة هو — أيضاً — الذي رزق وهو الذي فضل بعضكم على بعض في الرزق .

ولهذا أوصى الله نبيه أن يأمر أهله بالصلاة وأن يريهم على تقوى الله أما رزقهم فمردة إلى الله وحده يقول القرآن : « وأمرأهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقكم والعاقبة للمتقوى » (٣) .

ويسأل المولي سبحانه فيقول : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟

(١) سورة الروم ٢٠/٣٠

(٢) سورة النحل ٧٢، ٧١/١٦

(٣) سورة طه ١٣٢/٢٠

أمن يملك السمع والأبصار؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟
ومن يدبر الأمر؟ فسيقول الله فقل أفلا تتقون؟» (١).

ويقول: «أمن يبدأ الخلق ثم يعيده؟ ومن يرزقكم من السماء
والأرض؟؟» (٢).

ويسأل: «أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه؟؟» (٣).

ويذكر على البخلاء بما أعطاهم الله فيقول: «وماذا عليهم لو آمنوا بالله
واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله؟؟» (٤).

ويقول: «ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات
والأرض؟؟» (٥).

ولفتنا إلى هذه الظاهرة التي تتكرر: من يرزق هذه الدواب التي تنتشر في
أنحاء الأرض ويعلم حرركاتها وسكناتها؟

فيقول: «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها
ومستودعها.. كل في كتاب مبين» (٦).

ويرسم صورة حية لتلك العناية الإلهية فيقول: «وكأين من دابة لا تحمل
رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم» (٧).

(١) سورة يونس ٣١/١٠

(٢) سورة النمل ٦٤/٢٧

(٣) سورة الملك ٢١/٦٧

(٤) سورة النساء ٣٩/٤

(٥) سورة الحديد ١٠/٥٧

(٦) سورة هود ٦/١١

(٧) سورة العنكبوت ٢٩/٦٠ - ٦٣

ويتبعها بقوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ؟ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله . قل : الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » (١).

فالذى خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ونزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها هو — أيضاً — الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له .

ولا يدع القرآن القلب الانساني دون أن يسكب فيه أضواء هذا القسم العظيم الذى ينتزع من كل قلب خائف حائر خوفاً وحيرة فيقول : « وفي السماء رزقكم وما توعدون فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (٢).

ويضرب مثلاً صادقاً لأبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام وثفته المطلقة بخالقه وكيف ذبح لضيوفه الثلاثة عجلاً سميناً فقربه إليهم قال : ألا تأكلون ؟

وهذا موقفه عليه السلام من أهله حين تركهم فى صحراء مكة ولا أنيس لهم ولا زاد معهم وثوقاً فى فضل الله ورزقه ولنستمع إليه يتوجه إلى ربه قائلاً : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم — ربنا — ليقيموا الصلاة .. فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلمهم يشكرون » (٣) .

وما ذلك كله إلا تربية رحيمة من رب رحيم !!

وبعد هذا العلاج الإلهي لا يبقى هناك مجال للخوف أو الحزن فى الحاضر

(١) سورة العنكبوت ٢٩ ٦٣

٢٠ سورة الذاريات ٥١ ٢٢ ٢٣

٣٨ سورة ابراهيم ١٤ ٣٧

أو المستقبل ويصبح قتل الولد - بذلك - جريمة نكراء وخاصة إذا كانت الموءودة بنتا ضعيفة لا حيلة لها ولا قوة .

أما مسألة العار التي أوردتها كتب التاريخ والتفاسير فهي - أيضاً - تدور مع قضية الرزق ومع قضية هذا الدين كله .. وذلك أن الأمر لله يصرفه كيف يشاء .. والتزوية المستقيمة واتباع الدين القويم وهدى القرآن العظيم .. كفيل ذلك كله أن يحفظ للفتاة شرفها وعفتها .

ونبقى مسألة قتل الولد : ابن أو بنت كما يقول العلامة الجمل نقلاً عن الكرخي : « إن قتل الأولاد إن كان لحوف الفقر فهو من سوء الظن بالله وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى في تحريب العالم .. فالأول ضد العظيم لأمر الله والثاني ضد الشفقة على خلق الله وكلاهما مذموم » (١) .

٤ - تحديد المسئل . والعزل . هل هما قتل للولد ؟؟

ومع هذا البيان المطمئن للقلوب والذي يربط المؤمن بمصدر القوة والرزق من واجبنا أن نتتبع الوسائل الكثيرة لمنع الحمل لنرى رأى الاسلام فيها وهل هي قتل للولد حقاً أم لا ؟؟

أما طرق منع الحمل فهي كما ذكرها الدكتور حامد الغوابي كالاتي :

١ - طريقة العزل : وهي الإنزال بعيداً عن المرأة .. وهذه الطريقة تسبب الأضرار البليغة للرجل وكذلك للمرأة لما تحتاج إليه من ضبط الأعصاب واحتقان أوردة الدم - وليست هذه الطريقة أكيدة لمنع الحمل .

٢ - طريقة الكيس المطاط ، وهو كيس من الكاوتشوك الخفيف يلبسه الرجل ويباع في الصيدليات .

٣ - طريقة الغسل من المخالطة مباشرة .

٤ - طريقة الدبوس الذهبي وكذلك اللولبيات المعدنية وهي تدخل في عنق الرحم وتترك فيه عدة أشهر ثم تغير .. وهي طريقة لمنع الحمل وإنما تسبب الاجهاض المتكرر بما فيه من أضرار وأخطار .

٥ - طريقة حاجز المطاط : وهذا يوضع حول عنق الرحم فيعوق وصول النطفة إلى باب الرحم ويجب أن يستمر مكانه مدة ١٢ ساعة على الأقل بعد المخالطة .

٦ - طريقة الانتفاع بفترة الأمن : وهي الامتناع عن المخالطة في مدة فترة التبويض : فالبويضة تخرج من المبيض في اليوم الرابع عشر قبل حدوث الطمث وذلك في السيدات اللاتي انتظمت منهن دورات الطمث .. وبما أن الحيوانات المنوية لا تعيش إلا أياما قليلة فحينئذ توجد فترة لا يمكن أن تلتقي فيها الحيوانات المنوية بالبويضة فتكون فيها آمنة من الحمل .

٧ - طريقة التعقيم : وفيها القضاء على وظيفة الاحصاب وتكون في الرجل باجراء عملية بقطع القناتين النويتين أو ربطهما .. وفي المرأة باستئصال المبيضين أو اتلاف خلاياها بالأشعة أو بربط قناتي « فالوب » أو قطعهما .

وهناك طريقة الاجهاض بالعقاقير المحرصة للطلق أو القاتلة للجنين أو باستعمال الطرق الآلية أو باجراء عمليات طبية أو غير ذلك (١) .

هذه أهم طرق تحديد النسل أو منعه . فإرأى العلماء في ذلك وهل هذا قتل للولد ؟ ؟

يقول الامام القرطبي عند تفسيره : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » :

(١) مجلة لواء الاسلام : عددي جمادى الآخرة ورجب سنة ١٣٧٩ هـ من مقال للدكتور حامد الغواني « بتصرف » .

« وقد استدل بهذا من يمنع العزل لأن الوأد يرفع الموجود من النسل والعزل منع أصل النسل فتشابهها إلا أن قتل النفس أعظم وزراً وأقبح فعلاً. ولذلك قال بعض علمائنا : إنه يفهم من قوله عليه السلام في العزل ذلك الوأد الخفي . الكراهة لا التحريم . وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم وقال بإباحته جماعة من الصحابة والتابعين والفقهاء لقوله عليه السلام : « لا عليكم ألا تفعلوا فأنما هو القدر » . أى ليس عليكم جناح فى أن لا تفعلوا وقد فهم منه الحسن ومحمد بن المنبى النهى والزجر عن العزل . والتأويل الأول أولى لقوله عليه السلام : « وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء » .

قال مالك والشافعى : لا يجوز العزل عن الحرة إلا باذنها — وكانهم رأوا الانزال من تمام لذتها ومن حقها فى الولد وليس ذلك للموطوءة بملك اليمين إذله أن يعزل عنها بغير إذنها إذ لاحق لها فى شيء مما ذكر^(١) .

أما الامام الغزالي فيقول فى الاحياء :

« اختلف العلماء فى إباحة العزل وكراهته على أربعة مذاهب : فمن مبيح مطلقاً بكل حال . ومن محرم بكل حال ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها وكان هذا القائل يحرم الايذاء دون العزل . ومن قائل يباح فى المملوكة دون الحرة .

والصحيح عندى أن ذلك مباح — وأما الكراهة فانها تطلق لنهى التحريم ولنهى التنزيه ولترك الفضيلة — فهو مكروه بالمعنى الثالث أى فيه ترك فضيلة كما يقال يكره للقاعد فى المسجد أن يقعد فارغاً لا يشتغل بذكر أو صلاة » .

والغزالي يرى أن الكراهة ليست بمعنى التحريم ولا التنزيه : « لأن إثبات النهى إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه . بل ههنا أصل يقاس عليه وهو ترك النكاح أصلاً أو ترك الجماع بعد النكاح أو ترك الانزال بعد الايلاج فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب نهي » .

كما يرى الغزالي أن العزل غير الاجهاض والوَأَد : « لأن ذلك جنابة على موجود حاصل . وله أيضاً مراتب ، وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة في الرحم وتختلط بماء المرأة وتستعد لقبول الحياة . وإفساد ذلك جنابة . فان صارت مضغفة وعلقة كانت الجنابة أخش وإن نفخ فيها الروح واستوت الخلقه ازدادت الجنابة تفاحشاً . . ومنتهى التفاحش في الجنابة بعد الانفصال حياً » .

ويدفع الغزالي الشبهات الواردة على إباحة العزل فيقول : فان لم يكن العزل مكروهاً من حيث دفع لوجود الولد فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شوائب الشرك الخفي . فان النيات الباعثة على الشرك خمس :

الأول : في السراري وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق وقصد استبقاء الملك بترك الاعتاق . ودفع أسبابه ليس بمنهي عنه .

الثاني : الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء . وهذا أيضاً غير منهي عنه فان قلة الحرج معين على الدين . نعم الكمال والتفضل بالتوكل والثقة بضمان الله حيث قال : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضاً للتوكل لا نقول إنه منهي عنه .

الثالثة : استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلاق . وهذا أيضاً منهي عنه .

الرابعة : الخوف من الأولاد الإناث لما يعتقد في تزويجهن من المعرة كما كانت من عادة العرب في قتلهم الإناث . فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أتم بها لا يترك النكاح والوطء فكذا في العزل . . والفساد في اعتقاد المعرة في سنة رسول الله ﷺ أشد — وينزل منزلة امرأة

تركت النكاح استنكافاً من أن يعلوها رجل فكانت تتشبه بالرجال ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح .

الخامسة : أن تمتنع المرأة لتحريمها ومباغتها في النظافة . والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع . وهذا قصد فاسد . فان قلت : فقد قال النبي ﷺ « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا » ثلاثاً .

قلت : فالعزل كترك النكاح — وقوله : « ليس منا » أي ليس موافقاً لسنتنا وطريقتنا وسنتنا هي الأفضل .

فان قلت فقد قال رسول الله ﷺ في العزل : ذاك الوأد الحنفى وقرأ : وإذا الموءودة سئلت . وهذا في الصحيح .

قلنا وفي الصحيح أيضاً أخبار صحيحة في الإباحة وقوله : الوأد الحنفى كقوله : الشرك الحنفى وذلك يوجب كراهة لا تحريماً .

وفي الصحيحين عن جابر أنه قال : كنا نعزل علي عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل . وفي لفظ آخر : كنا نعزل فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا . وفيه أيضاً عن جابر أنه قال : إن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي جارية هي خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال عليه السلام : أعزل عنها إن شئت فانه سيأتيها ما قدر لها . فلبث الرجل ماشاء الله ثم أتاه فقال : إن الجارية قد حملت — فقال : قد قلت سيأتيها ما قدر لها — كل ذلك في الصحيحين « (١) .

ولعلنا بعد استعراض رأى القرطبي والغزالي وعرضهما لأراء كثير من العلماء يمكننا أن نقول : إن الوسائل التي تفسد النطفة بعد أن وقعت في الرحم واختلطت بماء المرأة واستعدت لقبول الحياة . مثل هذه الوسائل — مهما كان نوعها ومهما تعددت وسائلها — جناية وقتل للولد مالم ينتقل الحكم إلى

(١) إحياء علوم الدين : للغزالي ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ .

مسألة أخرى : هي الخوف على حياة أمه وهنا لا بد من ارتكاب أخف الضررين وهي مسألة تخرج من موضوع تحديد النسل إلى حياة الأم . ولا بد من المحافظة عليها .

لكن ماهي البواعث الدافعة إلى تحديد النسل أو إيقافه ؟ وهل يقوم بذلك كل فرد حسب ظروفه أو تشرف عليه الدول وتدعو كل دولة أفراد شعبها لهذا الأمر ؟

يقول علماء الغرب والأمريكان : إن سكان العالم في القرن الثامن عشر كانوا ألف مليون ، ويقدر أن النسبة لتزايد السكان في العالم بـ ٢٥ ٪ . بخمسة وعشرين في الألف وبتقدم الوعي الصحي وأساليب المحافظة على الصحة ستقل نسبة الوفيات وترتفع نسبة الزيادة . وإذا تركنا هذا العامل الإضافي فانه رغم ذلك يمكن القول بأن العالم عام ألفين ميلادية سيكون ستة آلاف مليون وفي سنة ألفين وخمسين سيكون تعداده ثلاثة عشر ألف مليون .

وقد انتشرت دعوة هؤلاء في البلاد العربية والإسلامية رغم قلة عدد الكثير من دولها حتى وجدنا دعوة تحديد النسل في سوريا — مثلا — مع أن سكانها أقل بكثير من مواردها ففيها نحو ١٢ مليون فدان تحتاج إلى أيدي لكي تعمل .

وفي العراق وفيه ١٨ مليون من أخصب أرض الدنيا وكان سكانه في عهد الرشيد بين الأربعين والخمسين مليونا .

وفكرة دول الاستعمار من نشر هذه الدعوة : أن زيادة السكان في الشعوب المتخلفة ستنتهي إلى إحدى نتيجتين : إما أن يضعوا أيديهم على مواردهم وذلك ليس في مصلحة هذه الدول المسيطرة . وإما أن يكثر الفقر ويفشو فيهم ويكون بذلك التمهيد للشيوعية . ولهذا تشجع أمريكا هذا المشروع وتنفق عليه وترصد له في ميزانيتها الأموال الضخمة .

وما يدل على أن دول الإسلام هي المقصودة بهذه الدعوة هو : أن دول

الغرب تشجع أفرادها على ازدياد النسل وتتجه في نفس الوقت إلى أمرين يبدو أن بينهما تناقضاً مع أن الغاية منهما واحدة :

الأمر الأول : تحديد النسل ومؤداه الاقلال من عدد السكان ما أمكن .

الأمر الثاني : التقليل الصناعي ومؤداه الاكثار من السكان ما أمكن .

وهذا الظاهر متعارض بلاريب لكن إذا بحثنا عن القصد والغاية نجد الاتجاهين ينتهيان إلى نتيجة واحدة :

لأن تحديد النسل يقصد به إفناء المسلمين والتقليل الصناعي يقصد به حل الأسرة الاسلامية . وفي حلها سير أيضاً إلى الفناء .

وهذه الدول التي ترصد في ميزانيتها الأموال لترويج مثل هذه الدعوة خوفاً من المجاعة على العالم تلقى ببعض القمح في البحار حتى لا ترخص أسعاره .

إن تحديد النسل أو تنظيمه أو إيقافه مسألة فردية يبيحها الدين في ظروف خاصة وليست من المسائل العامة التي ترصد لها الأموال وتروج الدعايات خوفاً على مستقبل أمة من كثرة نسلها ووقوعها في المجاعات . فما هكذا يكبرن أهل الإيمان .

وما ادعاه الغزالي من جواز تحديد النسل خشية الفقر لا معنى له فالغزالي يقول : « حفظ المال وادخاره مع كونه مناقضاً للتوكل لا نقول إنه منهي عنه » .

ويفرق بين العزل وقتل الولد . ونحن نوافقه على أن هناك فرقاً بين منع الحمل والقتل ولكن ما المقصود منهما ؟

وماذا يقصد الله من هذا النهي : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » ؟ وهل الدعوة إلى تحديد النسل إلا مخالفة صريحة لهذا النهي الصريح مع ما يحمله من تعليل لسبب القتل ؟ ؟

وماسبق أن أوضحناه من كيفية تحرير الإسلام لهذه النفوس المريضة
دليل على بطلان دعوة نبتت في بيئة غير إسلامية ليطعن بها الإسلام .

وما أحوجنا إلى استجابة هذا النداء الرفيع نعرف من المنادى ما حرم
وما أحل . ولو أضحنا السمع وفتحنا القلوب لوجدناه ترتيباً هادياً متجاوباً
مع الفطرة يقول :

« قل تعالوا : أتأكل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوأ به شيئاً وبالوالدين
إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

الوصية الرابعة :

قوله تعالى :

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن »

- ١ - ماذا يقصد بالفواحش ؟
- ٢ - ما معنى : ما ظهر منها وما بطن ؟
- ٣ - لماذا نهى عن الإقتراب من الفواحش ؟
- ٤ - المجتمع المسلم مجتمع غفيف طاهر !
- ٥ - بواعث الفاحشة وكيف تقضي عليها ؟

المشكلة الأولى

المشكلة الثانية

المشكلة الثالثة

المشكلة الرابعة

المشكلة الخامسة

المشكلة السادسة

المشكلة السابعة

المشكلة الثامنة

١ - ماذا يقصد بالفواحش؟

هذه الوصية الرابعة تأتي في موضعها المناسب لتبين الأساس الذي يقوم عليه المجتمع المسلم كله . إذ بعد أن بين الله حق الوالدين وحق الأبناء وربط ذلك كله بالقاعدة الأصلية من توحيد الله وعدم الاشراف به ساق هذه الوصية نوراً هادياً لأمة ترتاد الطريق وتعود العالم إلى الخير وتشهد على الناس جميعاً . وأمة هذه مكاتبها لا تحيا في أحوال الشهوات ولا تنبت في مرتع الفواحش ولا تتقدم قيد أنملة وهذا الانحلال ينخر في عظامها فيصيبها بالضعف والعجز .

ولكن ماذا يقصد بالفواحش ؟

ولماذا أنت بصيغة الجمع « فواحش » ؟

وما هي الفواحش الظاهرة والباطنة ؟

وما المعنى المقصود من النهي عن اقترابها ؟

وما هي صورة المجتمع المسلم كما أنشأه الإسلام ؟

وما هي بواعث الفواحش وهل من سبيل للقضاء على هذه البواعث ؟

كل هذه الحواطر تتوارد ونحن نتلوا في خشوع قول الله تعالى :
« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

* * *

يقول صاحب القاموس المحيط : « الفاحشة » الزنى وما يشتد قيمه من الذنوب وكل ما نهى الله عز وجل عنه . والفحشاء البخل في أداء الزكاة . والفاحش : البخيل جداً والكثير الغالب ، وقد فحش ككرم فحشا ، ورجل فاحش وفحاش وأفحش قال الفحش وتفاحش : أتى به وأظهره (١) .

وإذن فالفاحشة كما يقول أهل اللغة : كل شيء جاوز حده . وهي بذلك تشمل كل الكبائر وهي تجاوز لحدود الله « وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » (١) .

« تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » (٢) .

وإذاً فكل تعد لوصية من هذه الوصايا فاحشة : الاشرار بالله فاحشة الفواحش . عقوق الوالدين . قتل الأولاد . قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق أكل مال اليتيم .. الخ . كلها تجاوز للحد وفاحشة يجب البعد عنها ولكن ماذا يقصد بالفواحش هنا ؟

يرى التخر الرازي أن الأولى أن يبقى اللفظ عاماً كما سافة القرآن لا يخصص بنوع معين من الفواحش فيقول : « الأول ألا يخصص هذا النهى بنوع معين بل يجري على عمومه في جميع الفواحش ظاهرها وباطنها : لأن اللفظ عام والنهى المرجب لهذا النهى وهو كونه فاحشة عام أيضاً . . . ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل » (٣) .

ويتفق الرازي في ذلك مع القرطبي في أن اللفظ عام لا يخصص لفاحشة :

يقول القرطبي : « ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن : نظيره وذروا ظاهر الإثم وباطنه » فقوله : « ما ظهر » نهى عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي . . . « وما بطن » ما عقد عليه القلب من المخالفة . . . وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء » (٤) .

(١) سورة الطلاق ٦٥

(٢) سورة النساء ١٣ ، ١٤

(٣) مفاتيح الغيب ص ٢ ص ٢٣٣

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٧ ص ١٣٣

وهذا مارآه الأمام الطبرى إذ يقول :

« يقول تعالى ذكره : ولا تقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة التي هي علانية فيكم لا تناكرونها ركوبها والباطن منها الذي تأتونه سرأ في خفاء لا تجاهرون به فان كل ذلك حرام

ويرد على من خصص النواحيش بالزنا فيقول : « قيل ولا تقربوا مآظهر من النواحيش وما بطن لأنهم كانوا يستقبحون من معاني الزنى بعضاً دون بعض وایس ما قالوا من ذلك بمذفوع غير أن دليل الظاهر من التنزيل عن النهى عن الظاهر كل فاحشة وباطنها ولا خبر يقطع الغدر بأنه عنى بعضاً دون جميع . . وغير جائز إحالة الظاهر من كتاب الله إلى باطن إلا بحجة يجب التساميم لها » .

وذكر الطبرى روايات تؤيد من قال بأنها فاحشة الزنا وذلك بأسانيده عن السدى والضحاك وابن عباس وروايات أخرى تؤيد من قال بالعموم وذلك بأسانيده عن قتادة ومجاهد . . » (١)

ولكن مارآه الفخر الرازى والقرطبي والطبرى لا يتفق مع مدلول الآيات والوصايا في هذا الموضع .

إذ كل واحدة تحمل نهياً عن شيء أو أمراً بشيء والأولى أن يخصص هذا النهى بجريمة الزنا .

يؤيد ذلك قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » (٢)

يقول أبو السعود : « ولا تقربوا النواحيش كقوله تعالى : ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة . الآية (٣) .

(١) تفسير للطبرى : جامع البيان ج ١٢ ص ٢١٨

(٢) سورة الإسراء ١٧ ٣٢

(٣) سورة النساء ٤ ٢٥

ويؤيده تسمية القرآن لهذه الجريمة بالفاحشة قال تعالى :

واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سيلاً^(١).

يقول الزمخشري : « والفاحشة الزنا لزيادتها في القبح على كثير من القبائح .. »^(٢)

ويقول رب العزة في بيان حد من ارتكب الزنا من الإماء : « فإذا أحصن فإن أتت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب »^(٣)

فقد ظهر من هذه الأدلة أن قولهم : « التخصيص على خلاف الدليل » « ولا خبر يقطع العذر » « وغير جائز إحالة الظاهر من كتاب الله إلى باطن إلا بحجة يجب التسليم لها » قولهم هذا في غير موضعه بعد ما رأينا من آيات الكتاب التي تطلق على هذه الجريمة فاحشة وما عرفنا من أن كل ما نهى الله عنه في هذه الآيات فاحشة وفي مقدمة ذلك الشرك أخش الفواحش .

ولما كان المقام لتعدد أمور بعينها لزم أن تكون هذه جريمة بعينها ينهى عنها الذكر الحكيم : وما تلك الجريمة إلا فاحشة الزنا . يقول أبو السعود : « ومن هنا تبين أن حمل الفواحش على الكبائر مطلقاً وتفسير ما ظهر منها وما بطن بما فسر به ظاهر الأئم وباطنه فيما سلف من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه .. »^(٤)

وربما أتى هذا الوهم من جمع كلمة الفواحش وأكثر هذا الوهم قوله بعدها : ما ظهر منها وما بطن . غير أن جمعها ووصفها بما وصفت به يفيد أمراً على جانب كبير من الأهمية .

(١) سورة النساء ١٥/٤

(٢) الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٣٨٥

(٣) سورة النساء ٢٥/٤ (٤) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ١٤٩

ذلك أن هذه الجريمة ذات مقدمات ومغريات وملابسات كل منها فاحشة مثلها : فالتبرج والتهتك والاشارات والحركات والضحكات الفاجرة والاختلاط المشير والتزين والاستنارة . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة وكلها مما يجب الابتعاد عنه والاقتراب منها يهلك المجتمعات ويحطم قوامها ويصرف نشاطها البناء إلى نشاط هدام قوامه . إستنارة غرائز الشهوة وإشعال لهب الشيطان مما لا يستطيع مقاومته إلا قلة نادرة من الناس هي تربت في أناة وصر على موائد كتاب الله فاختلط هذا الكتاب بحسها ووجدانها بحيث لا يؤثر فيها هذا الفساد المطبق من حولها وداعى الشر المنادى لها في كل لحظة تمر في ليل أو نهار .

٢ - ما معنى « ما ظهر منها وما بطن » ؟

والإسلام في تربيته نوع فريد لا يبدأ به نظام بشرى مهما كانت قيمته إلا أن يكون هذا النظام قد استلهم روح هذا الدين .

ولننظر إلى نهيه عن فاحشة الزنا : كيف جعلها عدة فواحش تنفيراً من موقعة هذه الجريمة واستبشاعاً لمقدماتها وعلماً من صاحب هذا الدين بضعف هذا المخلوق البشرى إذ ليس من الحكمة أن ينهى عن الزنا ويدعو إلى الفتنة ويبيح التبرج والاختلاط والنظرات المثيرة .. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!

وإذا كانت قوانين البشر تراقب الظواهر فلا تستطيع ذلك بما لها من قوة السلاح والرجال فان نظام القرآن يجعل الرقابة مختلطة بالإحساس والشعور . تجرى من الإنسان مجرى الدم في العروق . « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (١) .

وإذاً فهو الاخلاص الذى يقوم عليه بناء الاسلام كله . إخلاص المشاعر والقلب والاحساس . إخلاص العمل والنية . تطهير الظاهر والباطن .

« لا جعاد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن : « فاعبد الله مخلصاً له الدين
ألا لله الدين الخالص » (١).

« وما أمرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة
ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (٢).

إنها روعة الترية القرآنية في إحصائها كل نفس يخرج وكل لمحة وإشارة
وكل نبضة قلب أو خفقة فؤاد .

وفي غرسها لشجرة العزة الإنسانية حيث يتحرر الإنسان من عبودية الناس
إلى عبودية رب الناس .

يقول الفخر الرازي : « وفي قوله : « ما ظهر منها وما بطن » دقيقة :
موهى أن الإنسان إذا احتزز عن المعصية في الظاهر ولم يحتزز عنها في الباطن دل
على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته ولكن لأجل الخوف من
مذمة الناس . وذلك باطل لأن من كان مذمة الناس عنده أعظم وقعاً من عقاب
الله ونحوه فإنه يخشي عليه من الكفر . ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً دل على
أنه إنما تركها تعظيماً لأمر الله تعالى وخوفاً من عذابه ورغبة في عبوديته » (٣).

وإذا كنا قد رجحنا أن المراد بالفواحش : فاحشة الزنا وإنما جمعها لما
لها من مقدمات : كل منها فاحشة وحدها فقد آن لنا أن نسير مع بعض أقوال
العلماء لنسألهم : ما هي الفواحش الظاهرة وما هي الفواحش الباطنة ؟

قال ابن عباس : كانوا يكرهون الزنا علانية ويفعلون ذلك سراً فنهأهم الله
عن الزنا علانية وسراً » (٤).

(٢) سورة الزمر ٣٩، ٢١، ٣٤

(٣) سورة البينة ٩٨، ٥

(٤) مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٢٣٣

(٥) مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٢٣٣

ويوضح ذلك أبو السعود فيقول : « ما ظهر منها وما بطن » أى ما يفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم . وما يفعل منها سرأ بتأخذ الأخذان كما هو عادة أشرفهم » (١) .

وينقل لنا الامام الطبرى جملة من آراء السابقين بأسانيده فيقول : « عن الضحاك قال : ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن : كان أهل الجاهلية يسرون بالزنا ويرون ذلك حللا ما كان سرأ حرم الله السر فيه والعلانية » . وهذا رأى ابن عباس كما نقله الفخر أيضاً .

« وفى رواية أخرى عن الضحاك : أن ماظهر : الخمر ، وما بطن : الزنا .

أما قتادة فانه يعرفنا أن ما ظهر منها وما بطن : سرها وعلانياتها . ومجاهد يرى أن ما ظهر : جمع بين الأختين وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده . وما بطن : الزنا » (٢) .

٣ - لماذا نهى عن الاقتراب من الفواحش ؟

... نعم ما ذكره هؤلاء الأجلء كله من الفواحش : الجمع بين الأختين وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده وشرب الخمر . ولكنها غير مقصودة فى هذه الآية كما يتضح ذلك من كتاب الله .

إذ إن النهى عن الخمر ونكاح ما نكح الأباء والجمع بين الأختين لم يكن ذلك إلا فى الآيات المدنية وسورة الأنعام مكية فى مجموعها . فاذا اعتبرنا آيات الوصايا الثلاثة مدنية كما ورد ذلك فى المصاحف التى بين أيدينا فان سياق الآيات وتتابع الوصايا التى تحمل كل منها وصية معينة يفيد اقتضار الفواحش هنا على فاحشة

(١) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ١٤٩

(٢) جامع البيان للطبرى ج ١٢ ص ٢٢٠

الزنا وما يسبقها من جرائم كل منها فاحشة بعينها . . . وبذلك يبقى نهى القرآن عن الاقتراب من الفواحش بجميع ألوانها لما كان من عاداتهم فى اتخاذ الأخذان والزنا سرّاً مع ما كان يعج به المجتمع من فساد ينشأ فى كل مجتمع يتعد عن تعاليم السماء وتبدو صورته فى ارتكاب هذه الجريمة فى الحوانيت علناً . فأراد الله تطهير هذا المجتمع فى صورته العامة وتطهيره فى ضمائر الأفراد وسرايرهم لذلك نهى عن الاقتراب من الفواحش .

إذ إن داعى هذه الجريمة قوى يجتذب إليه الكثير وطريقها مخفوف بالمخاطر « ومن حام حول الحمى يوشك أن يواقعه » فمجرد الاقتراب منهى عنه وذلك لعلم الله بضعف هذا الإنسان عند مقاومة إغراء الشهوة وفتنة الشيطان . يقول أبو السعود : « تعليق النهى بقربانه إما للمبالغة فى الزجر عنها لقوة الدواعى إليها وإما لأن قربانها داع إلى مباشرتها » (١) .

والمجتمع الذى تنتشر فيه الفاحشة مع مقدماتها — وكلها فواحش — مجتمع يقتل نفسه ويقضى على حياته . لذلك رأينا هذا النهى يأتى بين أمرين كل منهما قتل لشيء : الأول نهى عن قتل الأولاد . والثانى : نهى عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق .

يقول أبو السعود : « وتوسيط النهى عنها يقصد فاحشة الزنا) بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن القتل مطلقاً — كما وقع فى سورة بنى اسرائيل — باعتبار أنها مع كونها فى نفسها جناية عظيمة فى حكم قتل الأولاد . فان أولاد الزنا فى حكم الأموات وقد قال ﷺ فى حق الغزل إذ ذاك وأدخني » (٢) .

٤ - المجتمع المسلم مجتمع عفيف طاهر

ولقد أراد الإسلام أن يقيم مجتمعاً عفيفاً طاهراً بعيداً عن هذا الموت البطيء وذلك القتل الذي يهلك المجتمعات فكانت تعاليمه في هذا الشأن ثورة اجتماعية ردت للانسان اعتباره وأرجعت له كرامته وحفظه من عوامل الفناء والانهيار والقلق والاضطراب .

وقبل أن تنهى المسلم عن ارتكاب الزنى وتفرض عليه إقامة حده وضعت بين المسلم والجريمة سداً منيعاً من الطهارة والعفة وحمته من الإثارة والاستثارة ووفقت له بين مطالب الجسد والروح وأعطته الانسجام والتوافق بين تعاليم إلهه وشهوة جسده وأشعبت فيه كل رغبة ولم تترك له باباً يؤدي إلى موقعة هذا المحذور إلا وسدت منافذه فانطلق هذا المجتمع من عقالة متحرراً من رق الشهوة واضعاً وراء ظهره أغلال الشيطان وسار المسلم الأول يعمر هذا الكون كله بالحق والخير والعدل والطهر والعفاف .

إن الله الذي حرم الزنى هو الذي حرم النظرة المشبوهة .

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن

وهو الذي حرم التبرج :

« ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الأربعة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن . وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون^(١)

فما بالناس نساءؤنا لم يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فحسب إنما
خرجن عاريات فتنه وخروجاً عن دين الله . ١١

والله هو القائل : يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين
عليهن من جلايبهن ذلك أولى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً (١)
وهذه امرأة تشهد على ما في هذه الفاحشة : فاحشة التبرج من
خطورة وفساد .

تقول السيدة حرم الأستاذ محمد رضا في كتابها « التبرج » .

« المرأة المتبرجة شرارة للزناد فهي مجرمة تغوى بجمالها العباد ونكبة تنشر
من حولها الفساد فالويل لها . إنها شيطان رجيم يأخذ الرجال إلى نار الجحيم فلو
احتشمت المرأة واجتنبت التبرج والخلاعة في كلامها ومشيتها لما انتشر هذا
الفساد والشر المستطير . إذ من المحال أن تصان الأعراض والأسر إلا
بالاحتشام والغض من البصر (٢) .

وأشد من التبرج الاختلاط الذي عم خطره وانتشر ضرره وظهر ما فيه من
إهلاك وقتل للجماعات كما يقول القرآن . والاسلام لم يحرم الاختلاط فحسب
إنما حرم التكسر في القول والخضوع فيه وجعله وسيلة لإتارة القلوب المريضة .
يقول الله تعالى مخاطباً نساء النبي عليه السلام : « يا نساء النبي لستن كأحد
النساء إن اتقيتن . فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا
معروفاً » .

وأمرهن بالعكوف في البيوت فوظيفة البيت لا تعدها وظيفة يقول سبحانه
« وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (٣) .

(١) سورة الأحزاب ٣٣ / ٥٩

(٢) كتاب التبرج للسيدة الفاضلة نعمت صدقي حرم الأستاذ محمد رضا

(٣) سورة الأحزاب ٣٣ / ٢٢ ، ٢٣ .

وهذه صورة توضيحها كاتبة لمست ما في هذه الفواحش من إهلاك للمجتمعات وانهيار لها . والكاتبة ليست مسامة وإنما علمتها التجربة وصدمة الواقع فأرسلت هذه الصيحة تنادى بالقضاء على هذا الفساد . إنها الكاتبة الشهيرة « اللاديكوك » .

تقول « إن الاختلاط يألفه الرجال ولهذا طمعت المرأة فيما يخالف فطرتها وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون السكثرة من أولاد الزنى . وهنا البلاء العظيم على المرأة : فالرجل الذى علقته منه يتركها وشأنها تتقلب على الفاقة وتتضجع على الشقاء والعناء وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد بل والموت أيضاً .

أما الفاقة : فلان الحمل وثقله والوحم ودواره من موانع الكسب الذى تحصل به على قوتها .

وأما العناء : فهو أن تصبح شريرة فائرة حائرة لا تدرى ماذا تصنع بنفسها !
وأما الذل والعار : فأى عار بعد ضياع شرفها وإهدار المجتمعات لكرامتها ؟ !

وأما الموت فكثيراً ما تقتل المرأة نفسها بالانتحار وغيره ، هذا والرجل لا يلم به شيء من ذلك !! » .

ثم قالت : « أما آن لنا أن نبحث عما يخفف إذا لم نقل ما يزيل هذه المصائب العائدة بالعار على المدينة الغريبة ?? أما آن لنا أن نتخذ طرقاً تمنع قتل ألوف الألوف من الأطفال الذين لا ذنب لهم ??

ثم قالت : أيها الوالدان لا يغرنكما بعض درهيمات تكسبها بناتكما باشتغالهن فى المعامل ونحوها ومصيرهن إلى ما ذكرنا ، علموهن الابتعاد عن الرجال وأخبروهن بعاقبة الكيد الكامن لهن بالمرصاد !!

لقد دلنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من حمل الزنا يعظم ويتفاقم حيث

يكثر اختلاط النساء بالرجال !!

لم تروا أن أكثر أمهات أولاد الزنى من المشتغلات في المعامل والمخادعات في البيوت وكثير من السيدات المعرضات للأُنظار؟؟ ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية للأسقاط لرأينا أضعاف ما نرى الآن !!

لقد أدت بنا هذه الحال إلى حد من الدناءة لم يكن تصورها في الإمكان حتى أصبح رجال مقاطعات من أوروبا لا يطلب البنت زوجة ما لم تكن مجرّبة أي عندها أولاد من الزنا ينتفع بشغلهم .. وهذا غاية المهبوط بالمدينة فكما ناسبت هذه المرأة من مرارة الحياة حتى قدرت على كفالة الأولاد .. والذي علفت منه لا ينظر إلى هؤلاء الأولاد ولا يتعهدهم بشيء .. ويلاه من هذه الحال التعسة !! ترى من كان معيناً لها في الوحم ودواره والحمل وأثقاله والوضع وآلامه والنصال ومرارته .. !! (١)

أرأيت كيف تنقلب المفاهيم والقيم فلا يطلب الرجل في بلاد تدعى الحضارة إلا بنتا مجرّبة لها أولاد من الزنا؟؟ وكيف أدى الاختلاط إلى هذا الفسء وتقويض أركان المجتمع؟؟

والمجتمع المسلم يقدر عمل المرأة في بيتها ويجعله معادلاً لما يقوم به الرجال من جمع وجماعات وجهاد في سبيل الله فيعطى المرأة المسلمة حقها كاملاً ثقة منه بما في ذلك من الخير لها وللمجتمع .

✓ وفدت أسماء بنت يزيد الأنصارية التي لقيت بخطيبة نساء العرب ورسولتهن إلى رسول الله ﷺ وكان في جمع من أصحابه فقالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله !! أنا وافدة النساء إليك .. إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فأمنابك وبأهلك ، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وجاملات أولادكم .. وأنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وشهود الجنازات والحج بعد الحج وأفضل من

(١) الإصلاح المنشود للأسرة للأستاذ الشرباعى الحسين الطبعة الثانية

« للجهاد في سبيل الله عز وجل وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً
حفظنا لكم أولادكم وأموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم
أفشاركم في هذا الأجر والخير؟؟ » .

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل رأيتم مسألة امرأة
قط أحسن من مساء لها في أمر دينها ؟

فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا .

فالتفت النبي ﷺ إليها فقال : « أفهمي أيتها المرأة واعلمي من خلفك
من النساء إن حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ذلك كله » . فانصرفت المرأة
وهي تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها وعرضت عليهن ما قال لها الرسول ﷺ
ففرحن « (١) » .

إنه المجتمع المسلم العفيف الطاهر الذي قضى على عوامل هذا التفساد وألغى
ظواهر الفواحش وبواطنها من نفوس أتباعه ويسر لهم طريق العفة وأمرهم بها
فقال : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » (٢) .

وأرشدهم إلى طريقها فقال : « ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح
المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (٣) .

وقال الرسول عليه السلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة
فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (أى وقاية يقطع بها أثر
الشهوة) (٤) .

(١) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر — وهو مع الإصابة في

تمييز الصحابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٣٣ ط مصطفى محمد سنة ١٣٥٨ ١٩٣٩ م

(٢) سورة النور ٢٤ / ٣٣

(٣) سورة النساء ٤ / ٢٥

(٤) متفق عليه .

ويحرم الخلوة بالأجنبية :

فعن جابر أن النبي ﷺ قال :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم
فيها فان تالهما الشيطان » (١) .

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله
أرأيت الجمو؟ قال : الجمو : الموت » (٢) .

قال النووي تعليقا على هذا الحديث : المراد بالجمو الأخ وابن الأخ ونحوهما
مما يخل لها زوجها لو لم تكن مزوجه . وقد جرت العادة بالتساهل فيه فيخلوا
الرجل بامرأة أخيه فشبّه بالموت . وهو أولى بالمنع من الأجنبي فالشرك به
أكثر والفتنة به أمكن لو صوله إلى المرأة وخلوته بها من غير تكبير عليه
بخلاف الأجنبي (٣) .

أرأيت صورة أنقى وأظهر من صورة مجتمع الإسلام الذي قضى على هذه
القواحش ونهى عن الاقتراب منها؟؟ فهي مهلكات قاضيات على كل مرءة
ورجولة باعثات إلى كل تفكك ودمار وضياع .

(١) رواه أحمد

(٢) رواه أحمد والبخارى والترمذى

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٤ ص ١٥٤ ط المطبعة المصرية

٥ - بواعث الفاحشة وكيف تقضى عليها؟

نعم هذه بواعث الفتنة :

عري وتهتك وتكسر في الحديث واختلاط تضيع معه الفوارق وتتلاشي المروءات ويرفع فيه أنصار الشيطان ونظرات مريبة مشبوهة وخلوة بالأجنبية باسم الحضارة والمدنية إلى غير ذلك من هذه الفواحش التي تؤدي إلى خامة الفواحش : جريمة الزنا . والتي نظمها شوقي فقال :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

هذه بواعث الفتنة عرفها أتباع الشياطين ودرسوها في أغوار النفس وأقاموها على نظريات العلم وأصبح لها مدرسة يقودها هؤلاء المغرضون ويضعون لها المناهج ويقررون لها النظريات رغبة منهم في إطفاء نور الله :

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم أنوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (١).

ويوم تقوم الساعة وإشاعة الفوضى والفساد على نظريات العلم وقواعده وبحرته فذلك هو التدمير البشع للإنسانية وما انطلاق الشهوات من عقلها إلا تحطيم اللقيم والخلق والدين ونزول بالإنسان إلى مرتبة الحيوان وتلك هي النكبة المؤذنة بفناء البشرية :

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » (٢).

(١) سورة التوبة ٩ ، ٣١ ، ٣٢

(٢) سورة الروم ٤١/٣٠

وهؤلاء الذين ينشرون المجون والاستهتار والفوضى في النفوس ويسخرون لذلك الصحف والمجلات ووسائل الاعلام المختلفة وتقف وراءهم قوة هائلة من المال والدعاية تصل قوتها أن يصمم مصمم الأزياء في بلد من بلاد الفسق والفجور زيا من أزياء الخلاعة أو تقليداً من التقاليد فلا تمر عليه ساعات أو أيام معدودات حتى يطبق بحذافيره في أنحاء الأرض باسم التقدم والحضارة وماشابه ذلك من ألفاظ معسولة تحمل السم المهلك .

ولا سبيل إلى القضاء على بواغ هذه الفتنة إلا أن تحمل الأمة المختارة للحمل رسالة الاسلام راية القرآن تستظل بها وتعتم بمأجمله هذا القرآن من مبادئ خالدة أخرجت أمة من العدم إلى الوجود وصنعت حدثاً فذاً في التاريخ انتقل به العرب من رعاة الأغنام إلى رعاة الأمم :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) .

وطريقها في ذلك أن يصلح كل فرد قلبه ووجدانه ويظهر سريره وباطنه وأن يداوى بالقرآن داءه كما قال الحق تبارك وتعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » (٢) .

وقال : وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى (٣) .

وقال : ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين (٤) .

طريق أمة الإسلام : الالتزام بما ورد في كتابها من تحليل وتحريم لا أن تسير وراء كل ناعف ولا أن تتنازل عن دينها مجارة لمدينة زائفة :

(٢) سورة العنكبوت ٢٩ / ٤٥

(١) سورة آل عمران ٣ / ١١٠

(٤) سورة الاسراء ١٧ / ٨٢

(٣) سورة طه ٢٠ / ١٣٢

قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون^(١).

ولم نعد في حاجة إلى دليل بعد ما طف الصاع وبلغ السيل الزبي ونجح أعداء الله والحاقدون على دينه في زجر حة هذا الدين عن ركب الحياة واستبدال تعاليمه بتعاليم مصطنعة . وعاداته وتقاليده بعادات وتقاليد بعيدة عن الطريق الذي رسمه كتاب الله .

ولم تعد هناك فرصة بعد أن تكالب علينا العالم كله ليضرب ضربته القاضيه وليفرغ فيها حقداً دفيناً على أمة الاسلام . إنهم هؤلاء الأعداء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا . وهؤلاء لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة . إن القضاء على بواعث الفاحشة حياة للمجتمعات وتخفيف لها من عبء ثقيل والله الرحيم الرحمن أراد لنا الخير والاسعاد ودلنا على طريقه الواضح . ولكن أنصار الشر يشعلون — دائماً — نار الفتنة فمن أطاعهم أحرق بنارهم ومن سار في ركب النور الإلهي فقد فاز ونجا :

يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً^(٢) .

(١) سورة الأعراف ٣٣/٧

(٢) سورة النساء ٢٦/٤ — ٢٨ .



الوصية الخامسة :

قوله تعالى :

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق »

- ١ — لماذا أفرد الله هذه الوصية بالذكر مع أنها داخلة في الفواحش ؟
- ٢ — الإستثناء في قوله : « إلا بالحق » وإعراجه .
- ٣ — جريمة القتل وما فيها من ظلم وإعتداء على الكرامة الإنسانية .
- ٤ — نظرة الإسلام لهذه الجريمة وكيف يقضى عليها ؟
- ٥ — من الذي يجب قتله بأمر الإسلام ؟ ولماذا ؟ ؟
- ٦ — المجتمع المسلم مجتمع مستقر آمن .
- ٧ — الجهاد الإسلامى هل هو قتل للنفس ؟

١ - لماذا أفرد الله هذه الوصية بالذكر

مع أنها داخلة في الفواحش؟

الإشراك بالله . وجريمة الزنا وقتل النفس كثيراً ما يأتي النهي عنها متواليه في القرآن وذلك لأنها كلها جرائم قتل في الحقيقة :

الأولى : قتل للفطرة . والثانية : قتل للجماعة . والثالثة : قتل للنفس المفردة

فالمشرك يقتل فطرته ويقطع الطريق الموصل له إلى الله . يقول القرآن :
« أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » (١) .

والمجتمع الذي يعيش في وحل الشهوات مجتمع هزيل ضعيف في طريقه إلى الفناء والهلاك .

والمجتمع الذي تنتشر فيه الفوضى ويقتل أفراده وتعمه الثارات لا يستقر له قرار ولا يصل إلى أمان . . . نعم . كل هذه فواحش تهلك المجتمعات . وحين قال القرآن : « ولا تقرّبوا الفواحش » عرفنا ماذا يقصد بهذا النهي وأنه جريمة الزنى ومقدماتها وما تعدده لها المجتمعات الفاسدة من ألوان الانارة والاشباع الجنسي .

أما أن يكون النهي عن الفواحش عاماً يشمل كل فاحشة قلنا أن تتساءل :
لماذا أفرد الله جريمة القتل بالذكر مع أنها داخلة في هذا العموم ؟؟

يجيب على هذا التساؤل الفخر الرازي فيقول : « واعلم أن هذا داخل في جملة الفواحش إلا أنه تعالى أفردته بالذكر لفائدتين : الأولى : أن الأفراد

بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم كقوله : وملائكة وجبريل وميكايل. والثانية أنه تعالى أراد أن يستثنى منه ولا يتأتى هذا الاستثناء في جملة الفواحش (١) إلا أن إجابة الفخر الرازي القائل بعموم النهى عن كل الفواحش ما هي إلا خروج من مآزق أو وقعة فيه هذا العموم . . وإلا فلا مناص أن نقول ما سبق : من أن المقام مقام تعداد أمور بعينها والنهى عن الفواحش هنا مقصود به : الزنى ومقدماته كما عرفنا ذلك في استعمالات القرآن لهذه الكلمة .

٢ - الاستثناء في قوله « إلا بالحق » وأعرابه »

أما الاستثناء في قوله « إلا بالحق » فهو استثناء مفرغ أى لا تقتلونها في حال من الأحوال إلا حالي ملابستكم بالحق . فهذا الاستثناء راجع لقوله : « لا تقتلوا » لا لقوله : « حرم » . والياء للملابسة هي ومدخولها خال من الواو في « تقتلوا » . والأولى أن قوله « إلا بالحق » مفعول مطلق : أى إلا القتل المتلبس بالحق (٢) .

ويجوز أن يكون هذا استثناء من أعم الأسباب أى لا تقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق . أو من أعم المصادر أى لا تقتلونها قتلاً إلا قتلاً كائناً بالحق .

٣ - جريمة القتل وما فيها من ظلم واعتداء

على الكرامة الإنسانية

وجريمة القتل جريمة بشعة وصاحبها مقطوع الصلة بالله وبالناس وقاسى القلب بل فاقد الحس والشعور . لا يعرف رحمة ولا عطفاً ولا خلقاً ولا ديناً .

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج ١٣ ص ٢٣٣

(٢) أبو السعود ج ٢ ص ١٤٩

وهذه الجريمة أعلى مراحل الظلم وأقساها بعد الاشرار بالله فهي اعتداء على كرامة الإنسانية وتقطيع لصلات القربى والمودة وتباغض ودمار .

والمقتول : أليس صاحب ولد ؟ فمن لأولاده يرعى يتمهم ويكفكف دموعهم ؟؟

وزوجة : من لزلزلها ومسكنها ؟ وأهلها وأحبابه : كيف ينزع هذا الإنسان من بينهم دون إثم ارتكبه أو سيئة قدمها ؟

أليس هناك رباط الأخوة الإسلامية ؟ كيف يقطع ؟

أليس هناك حقوق الجوار ؟ كيف تهدر ؟

أليس هناك عطف القرابة ؟ كيف يخان ؟

أليس هناك رباط الإنسانية الجامع لكل البشر ؟ كيف يستباح ؟

نعم .. القاتل يعتدى على كل هذه الحقوق ويقطع هذه الصلات ويخون تلك المبادئ ويستبيح هذا الحمى لذلك كان القتل مما تأباه الطباع السليمة وتفر منه القلوب الرحيمة وتهاب الإقدام عليه النفوس المستقيمة .

يأباه المسلم وينفر منه المشرك وينفر منه الكافر مراعاة لحق الإنسانية ومعرفة بحقوقها . فالقتل ظلم واعتداء أجمت على ذلك شرائع الأنبياء وقوانين البشر وتساوى في هذه الحقيقة عابد رب السماء ومن يعبد الحجر والشجر .

٤ - نظرة الاسلام لهذه الجريمة وكيف يقضى عليها؟

والإسلام - وهو دين الإنسانية الجامع - يقدر كرامة الانسان .. ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً (١) .

ويسخر له كل ما في هذا الكون كما تنطق بذلك آيات القرآن التي تعدد نعم الله في السماء والأرض . قال تعالى : « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لکم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار » (١) .

هذا الإسلام يعرف للحياة حقها ويحفظها من الاعتداء والضياع . بل إن الاعتداء على حياة حيوان وإذهاق روحه ظلماً جريمة تدخل صاحبها النار قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » (٢) .

وإقذاذ حياة الحيوان سبيل للمغفرة والقبول . روى عن رسول الله ﷺ أن رجلاً أصابه ظمأ شديد فنزل بئراً ليرتوي من ماءها فلما خرج منها رأى كلباً يلهث يلحس الثرى من العطش فقال : لقد أصاب هذا الكلب من الظمأ مثل الذي أصابني فنزل بئراً وملاً خفه وسقى الكلب فشكر الله له فغفر له (٣) .

فاذا كانت هذه نظرة الاسلام إلى حياة المخلوقات الدنيا من الهرة والكلب فما بالناس حياة الانسان ؟ ؟

ماذا يكون ثواب من يحفظ هذه الحياة ؟ وماذا تكون عقوبة المستهتر بها المعتدي عليها ؟ ؟

إن الله يجعل الاعتداء على حياة فرد اعتداء على الانسانية كلها ، كما أن المحافظة على حياة نفس واحدة حياة للناس جميعاً . يقول القرآن : « . إنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » (٤) .

(١) سورة إبراهيم ١٤ / ٣٢ - ٣٤ (٢) رواه البخاري

(٤) سورة المائدة ٣٢ / ٤

(٣) رواه مسلم

يقول أبو السعود تفسيراً لقوله : فكأنما قتل الناس جميعاً : « ومنائط التشبيه اشتراك الفعلين في هتك حرمة الدماء والاستعصاء على الله تعالى وتجسير الناس على القتل وفي استنباع القود واستجلاب غضب الله تعالى وعذابه العظيم » (١) .

بل إن حياة الإنسان لا يعد لها شيء على الإطلاق . فلم تخلق هذه الأرض إلا ليعمرها الانسان . يقول الرسول ﷺ : « لزال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم » (٢) .

ويعذب الله أهل السماء والأرض لو اجتمعوا على قتل إنسان : فعن ابن عباس رضي الله عنهما : قتل بالمدينة قتيل على عهد رسول الله ﷺ لم يعلم من قتله . فصعد النبي ﷺ المنبر وقال : « يا أيها الناس قتل قتيل وأنا فيكم ولا يعلم من قتله لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء » (٣) .

وحق الحياة يتساوى فيه البشر جميعاً مسالمهم وكافرهم لذلك أنذر رسول الله ﷺ من يعتدى على أحد من أهل الكتاب بالعذاب الشديد : فعن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة . وفي رواية أخرى : من قتل قتيلاً من أهل الذمة حرم الله عليه الجنة » (٤) .

ويضرب الرسول أروع الأمثلة كي يفرس في النفوس تقديس حق الحياة فإن العرب كانت تقدر الكعبة وتشدد الرحال من عهد ابراهيم الخليل : هذه الكعبة العظيمة المكرمة في الجاهلية والتي زادها الاسلام تعظيماً وتكريماً . يقف الرسول أمامها يقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك وما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ماله ودمه » (٥) .

(١) تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٢

(٢) رواه الترمذى والنسائى عن ابن عمرو بن العاص .

(٥) النسائى

(٤) البخارى

(٣) الطبرانى

وهل رأيت أعظم حرمة من الشهر الحرام والبلد الحرام ؟

إن رسول الله ﷺ يقف في حجة الوداع يقول : أى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . ثم قال : أى شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . ثم قال : أى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال : أليست البلدة مكة ؟ قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم — أحبه قال : وأعراضكم — عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . ألا لا ترجعوا بعدي كناراً يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا هل بلغت . ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب (١) .

إن هذه الكلمات مازالت ترن في آذان الزمن تتناقلها الأجيال لتثبت عظمة الإسلام وكيف حقق الأمان والسلام للعالم كله ، والذي جعل من علامات أتباعه والمنتسبين إليه المسالمة لكل من في الكون : فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دماءهم وأموالهم (٢) .

نعم هذه جريمة القتل كما يراها الإسلام .

وهو حين ينهى عنها إنما يضع العلاج الالهي لنفوس يستولي عليها هذا الحق وسيطر عليها حب الاعتداء وذلك يربط الإنسان بأخيه الإنسان في وحدة إنسانية جامعة . « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

« يأيتها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً » (٣) .

(٢) البخارى .

(١) ابن ماجه

(٣) سورة النساء ١/٤

ولا يجعل اختلاف الدين سبباً للتناكر والتباغض : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (١) .

ويربط الفرد بأبويه ويوصي الأبوين بالأولاد ويحفظ كيان الأسرة من الإنهيار ويحمي المجتمع من إثارة الشهوات وإستئثار الغرائز ويفرض حقاً لكل قريب أو جار . يقول القرآن :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » (٢) .

ويجعل الإسلام الرحمة بكل الخلق شعار المسلم فهو في كل أمر يبدأه ينطق بسم الله الرحمن الرحيم . ويعرف قول رسوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » (٣) .

لهذا كله يستولى على حس المؤمن شعوراً بالرحمة والمودة والتعاطف على الجنس البشرى بل وتشمل رحمته الطير والحيوان فكيف بالإنسان ؟ هذا مع تغليب عقوبة القتل وبيان ما في هذه الجريمة من خطر في الدين والدنيا . وبذلك ينزع كل عامل للجرام ويقضى على بواعث هذا الشر المستطير .

ه - من الذى يجب قتله بامر الاسلام ؟ ولماذا ؟

والقضاء على بواعث هذه الجريمة حياة للمجتمع وهو الحق الذى أقره الله لنشر الأمان والسلام لذلك حرم الله القتل إلا بالحق « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .

(٢) سورة النساء ٤/٣٦

(١) سورة الممتحنة ٦٠/٨

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

فما هي النفس التي تقتل بأمر الإسلام ويجب فيها تنفيذ هذا الحقي ؟
لقد بين القرآن وأوضحت السنة الحالات التي ينفذ فيها حكم الإعدام
ويستحل بهادم الإنسان :

جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ :
« لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا باحدى
ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وروى أبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : لا يحل دم امرئ مسلم إلا باحدى ثلاث خصال : زان محصن
يرجم . ورجل قتل متعمداً فيقتل . ورجل يخرج من الإسلام وحارب الله
ورسوله يصلب أو ينفي من الأرض (١) .

فالحالة الأولى إذن : الثيب الزاني : وحده الرجم . ولا يثبت حد الزنى
إلا بالاقرار أو شهادة أربعة كما هو موضح بكتب الفقه .

والشخص الذي أعفه الله بالحلال وأتاح له فرصة المعاشرة الرحيمة
والسكن الهاديء كما قال تعالى : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا
لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٢) .

مثل هذا الشخص حين يعتدى على الحرمات ويلوث الأنساب ويسرق
الأبوة ويعبث بأعراض المجتمع يتنازل عن كرامته ويفقد إنسانيته ويهدد
الآمنين لذلك أباح الإسلام دمه رجماً بالحجارة . كما جعل لغير المحصن عقوبة
الجلد على ملا من الناس : « الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة
ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد
عذابهما طائفة من المؤمنين » (٣) .

(٢) سورة الروم ٣٠ ٢١ .

(١) ابن كثير ص ١٨٩

(٣) سورة النور ٢٤/٢ .

ومن هذا الباب إتيان الذكور فقد قال لوط لقومه : « أتأتون الفاحشة
ما سبقكم بها من أحد من العالمين » (١) .

فسماها فاحشة ليين أنها زنا كما قال تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان
فاحشة وساء سبيلاً » (٢) .

قال القرطبي : « اختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم
على تحريمه فقال مالك : يرمم أحصن أو لم يحصن . كذلك يرمم المفعول به
إن كان محتتماً . وروى عنه أيضاً : يرمم إن كان محصناً ويحسب ويؤدب
إن كان غير محصن وهو مذهب عطاء والنخعي وابن المسيب وغيرهم . وقال
أبو حنيفة : يعزر المحصن وغيره .

وروى عن مالك : وقال الشافعي : يحد الزنا قياساً عليه . وقد روى
أبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي والدارقطني أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به .

وهذا لفظ أبي داود وابن ماجه . وعند الترمذي : أحصن أو لم يحصن .
وروى أبو داود والدارقطني عن ابن عباس في البكر يوجد على اللوطية
يرجم !!

وقد روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه حرق رجلاً يسمى
النجلاء حتى عمل قوم لوط بالنار وهو رأى علي بن أبي طالب فإنه لما
كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبي صلى الله
عليه وسلم واستشارهم فيه فقال علي : إن هذا الذنب لم تعصى به أمة من
الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما علمتم . أرى أن يحرق بالنار فاجتمع رأي
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بالنار . فكتب أبو بكر
إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه . ثم أحرقهم الزبير في زمانه . ثم
أحرقهم هشام بن الوليد . ثم أحرقهم خالد القسري بالعراق . وروى أن سبعة

أخذوا في زمن ابن الزبير في لواط فسأل عنهم فوجد أربعة قد أحصنوا فأمر بهم فخرجوا بهم من الحرم فخرجوا بالحجارة حتى ماتوا وحدث الثلاثة وعنده ابن عباس وابن عمر فلم ينكرا عليه . وإلى هذا ذهب الشافعي . وتعلق الحنفيون بأن قالوا : عقوبة الزنا معلومة فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألا يشاركها في حدها . وأيضاً فإنه وطء في فرج لا يتعلق به إحلال ولا إحصان ولا وجوب مهر ولا ثبوت نسب فلم يتعلق به حد .

قال ابن العربي : والذي صار إليه مالك أحق فهو أصح سنداً وأقوى معتمداً (١) .

والحالة الثانية : قتل النفس بالنفس .

وهذا جزاء عادل فلا أقل ممن قتل إنساناً أن يقتل به وفي ذلك تطمين لأولياء دم المقتول ومنع للثارات والعداوات حين يعلم أهل القتل أن دمهم لم يضع هدراً وأن الإسلام سوف يأخذ لهم حقهم . يقول القرآن :

ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً (٢) .

وهذا السلطان هو تضامن المؤمنين وتيام ولي أمرهم بتنفيذ ما كتبه الله وفرضه بشأن هذه العقوبة :

يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد والأثني بالأثني (٣) .

وما قرره القرآن قرره التوراة . يقول الله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها (أي التوراة) أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤

(٣) سورة البقرة ٢/٧٨

(٢) سورة الإسراء ١٧/٣٣

والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم
بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (١) .

الحالة الثالثة : التارك لدينه .

ولا مرأى في أن الردة فتنة في الدين ومن حق الجماعة التي تفتن في دينها أن
تحافظ على نفسها . فمن أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة وجب قتاله
وقتله . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى
يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه إلا بحقه
وحسابهم على الله (٢) .

وقد قاتل أبو بكر مانعي الزكاة لأنهم لم يؤدوا حق لا إله إلا الله والقرآن
يقول : فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم (٣) .

الحالة الرابعة : المفارق للجماعة

والإسلام دين التوحيد والوحدة ومن أجل ذلك يدعى الجماعة المسماة إلى
إتحاد الوحدة شعار حياتها حتى أنه ليأمر بطاعة الحاكم الظالم ما لم يأمر بمعصية
إذا كان الخروج على طاعته يسبب فتنة ويحدث شقاقاً .

ولا بد من الالتزام برأى الجماعة فإن خرج أحد عليها قائلته حتى ترده للحق
يقول الرسول صلى الله عليه وسلم إذا برع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما (٤) .

وهو واجب الجماعة المسماة إذا بغت إحدى فتمتين على أخرى بعد أن تم
بينهما الصلح يقول القرآن : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا
بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفء إلى أمر الله
فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » (٥) .

(٢) متفق عليه

(١) سورة المائدة ٤٥، ٥

(٣) سورة التوبة ٥/٩ (٤) أخرجه مسلم (٥) سورة الحجرات ٤٩ ٩

الحالة الخامسة : الإفساد في الأرض ومحاربة الله ورسوله :

وهذه حالة خطيرة يضع لها الشرع حداً قاسياً يتناسب مع عظم جرمها وما فيها من ترويع للأمينين وإخلال بنظام المجتمع وتهديد لآمنه واستقراره يقول القرآن : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » (١) .

يقول أبو السعود : « أن يقتلوا : أي حداً من غير صلب إن أفردوا والقتل ولو عفا الأولياء لا يلتفت إلى ذلك لأنه حق الشرع ولا فرق أن يكون القتل بآلة جارحة أولاً . « أو يصلبوا » أي مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ بأن يصلبوا أحياء وتبجح بطونهم برمح إلى أن يموتوا » . أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . أي أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن اقتصرنا على أخذنا المال من مسلم أو ذمي . أما قطع أيديهم فلاخذ المال وأما قطع أرجلهم فلاخافة الطريق بتفويت آمنه أو ينفوا من الأرض إن لم يفعلوا غير الإخافة والسعي للفساد والمراد بالنفي عندنا هنا هو الحبس فانه نفي عن وجه الأرض لدفع شرهم عن أهلها ويعذرون لمباشرتهم مفكراً لإخافة وإزاله الأمن .

٦ - المجتمع المسلم مجتمع مستقر آمن ؟

أرأيت كيف يبتز الإسلام كل عضو فاسد في مجتمعه حتى لا يسرى فساده إلى البناء الاجتماعي كله ؟؟ وكيف أن الحالات التي يهدر فيها دم امرئ يبدو فيها الحق الصراح . ولو تركت حالة منها لكان قصوراً في التشريع وعدم إحاطته بحاجات الناس . تعالى الله عن ذلك فهو الحكيم الخبير .

وهل رأيت أعظم من عدالة الإسلام وحمائته لمجتمعه ؟ وصدق الله إذ يقول : ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون (١) .

فالقصاص من الجاني حياة للمجتمع وإنماء له وحفظ لأفراده . لكن من يعرف ذلك ؟ إنهم أصحاب العقول السليمة لا أهل القلوب المريضة الذين يخيل إليهم أن ما عندهم من نظم خير من نظام الله : « وإذا قيل لهم تعالوا إلي ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » (١) .

انظر إلى مجتمع الإسلام كيف يسوده الاستقرار والأمان لأنه محفوظ بحفظ الله وأفراده تتكافأ دماؤهم ويسعي بذمتهم أدانهم .

وكل فرد في هذا المجتمع يعرف مدى ما في القتل العمد من غضب الله وشدة عقابه يقول القرآن : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً (٢) .

وقد مر بنا وعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قتل معاهداً أو حيواناً فكيف بمن قتل مؤمناً ؟

وحين يقرر الإسلام عقوبة الاعدام في القتل العمد يقرر الدية في القتل الخطأ حتى تهدأ نفوس أولياء الدم . ويقرر مع الدية شيء آخر : تحرير رقبة مؤمنة . وكان القاتل بتحريره لهذه الرقبة يضيف عنصراً جديداً للنوع الإنساني بدل ما أضاعه بخطئه . فان لم يستطع فصيام شهرين متتابعين : وهو بصيامه يحيي نفسه الميتة وينتزع منها كل أمراضها ويربيها بتقوى الله وخشيته فالقتل — دائماً — يتنافى مع الايمان يقول الحق تبارك وتعالى : وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً (٣) .

(١) سورة النساء ٤ / ٦١

(٢) سورة النساء ٤ / ٩٢ ، ٩١

ويجعل الله الابتعاد عن مثل هذه الجريمة صفة من صفات عباد الله الذين اختارهم واصطفاهم فيقول سبحانه : والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً (١) .

وكيف لا يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً آمناً شعاره السلام والأمان ؟ يبدأ ذلك من اسم الله تعالى فهو سبحانه : السلام المؤمن ، ويسرى ذلك في كيان المؤمنين فتكون تحية السلم حين يلقى أخاه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . كما يردده في كل سلام : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ولا يخرج من الصلاة إلا بكلمة السلام ويسمع هذه الكلمة في الجنة . فأدخلوها بسلام آمنين (٢) .

وتحييتهم فيها سلام (٣) .

سلام عليكم طبتم فأدخلوها خالدين (٤) .

سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار (٥) .

والجنة اسمها دار السلام : « لهم دار السلام عند ربهم » (٦) .

والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (٧) .

وهي لغة عباد الله إذا ما خاطبهم الجاهلون : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً (٨) .

(٢) سورة الحجر ١٥ / ٤٦

(٤) سورة الزمر ٣٩ / ٧٣

(٦) سورة الانعام ٦ / ١٢٧

(٨) سورة الفرقان ٢٥ / ٦٣

(١) سورة الفرقان ٢٥ ، ٦٨

(٣) سورة يونس ١٠ / ١٠

(٥) سورة الرعد ١٣ / ٢٤

(٨) سورة الفرقان ٢٥ ، ٦٣

والأمان جزاء الله للمهتدين : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أو لك
لهم الأمن وهم مهتدون (١)

وهو وعد الله لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جزاء جهادهم :
وعد الله الذين آمنوا منكم وعمموا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما
استخلف الدين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد
خوفهم أماناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً (٢) .

وكيف لا يستقر هذا المجتمع وأفراده متعاونون جميعاً في القيام بواجب
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يقبلون ظالماً يقع على واحد منهم . ويوم
تهون المبادئ تهون الأمة كلها . وما هانت أمة الإسلام إلا حين تركت هذه
التعاليم السامية والمبادئ الرفيعة العالية . وما عرف المجتمع المسلم الأول غير
العزة والكرامة والتناصر والتعاون يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم انصر
أخاك ظالماً أو مظلوماً . قال : انصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ قال :
تحمزه عن ظلمه فذلك نصره (٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقفن أحدكم موقفاً يضرب
فيه رجل ظالماً فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفع عنه (٤) » .

وجزاء من ينصر المظلوم عظيم عند الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من مشى معي مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل
الأقدام (٥) » .

أرأيت كيف يحيا المجتمع الذي يصنعه الإسلام في رحمة ومودة وتعاطف ؟
وكيف تلغى فيه فوارق الجنس واللون والأرض والدين فلا تبقى إلا روابط
الإنسانية الرحيمة والعطف الرقيق ؟
ولم لا يحيا هذا المجتمع في أمان والذي صنعه ورتبه ونظم شأنه هو مبدع
السموات والأرض وهو بكل شيء عليم ؟

(١) سورة الأنعام ٦ / ٨٣ (٢) سورة النور ٢٤ / ٥٥

(٥) الأصبهاني

(٤) الطبراني

(٣) البخاري

٧ - الجهاد الإسلامي : هل هو قتل للنفس

هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا للدنيا يحملون سيوفهم ومعها أرواحهم ودمائهم يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون .

لم خرج هؤلاء ؟ وكيف قتلوا هذه الأعداد الضخمة من البشر ؟ لنا أن نتساءل : هل جهادنا الإسلامي قتل للنفس أم حياة للنفس ؟

هل هو ترويع وتخويف للامنين ونقص في النوع الإنساني أم تثبيت وتطمين وتأمين وزيادة في النوع الإنساني ؟

إن الله حين أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . جعله رحمة للعالمين : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (١) .

ولكن هذه الرحمة قوبلت بالانكار من أهل مكة فنزل برسول الله وأصحابه على مدى ثلاثة عشر عاما من ألوان الاضطهاد والتعذيب مالا يتحمله بشر . إلى أن كانت مؤامرة دار الندوة وأذن الله رسوله بالهجرة إلى المدينة فترك هو وأصحابه ديارهم وأموالهم وخرجوا مهاجرين إلى أرض يثرب حيث أنصار الله وأنصار رسوله . وكان لا بد للمظلوم أن ينتصر فنزل قول الله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (٢) .

ثم فرض عليهم القتال لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ف قيل لهم : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٣) .

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة حين تجمعت الجزيرة العربية كلها على

(٢) سورة الحج ٢٢/٣٩، ٤٠.

(١) سورة الأنبياء ٢١/١٠٧

(٣) سورة البقرة ٢/١٩

حرب المسلمين فقال لهم ربهم . وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة. (١).

وقال لهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (٢) .

فكان القتال محرماً ثم مآذونا فيه ثم مأموراً به لمن قاتلهم ثم مأموراً به لجميع المشركين . وبالمرحلة الأخيرة انتقل الاسلام ليأخذ دوره القيادي في حياة البشرية باعتبار أنه دين عالمي ورسوله رحمة للعالمين . والمرحلة الأخيرة كما يقول ابن القيم في زاد المعاد التي استقر فيها أمر الكفار معه بعد نزول براءة علي ثلاثة أقسام : محاربين له وأهل عهد وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ومسلم له آمن وخائف محارب (٣) .

وليس جهادنا الاسلامي مجرد دفاع عن الارض كما يفهم البعض من كلمة الدفاع إنما هو تحرير للانسان في كل أرض وكل زمان
وإذا كان لا بد له أن يدافع فهل يتركه أهل الضلال يصل إلى القلوب والعقول ؟

إن التجربة أثبتت أنه لا تعايش على الاطلاق بين الاسلام والحاقدين من أهل الشرك والظلم مصداقاً لقوله الله تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) (٤) .

إن تأمين دار الاسلام شيء لأبد منه لأنها مركز الانطلاق للعالم كله . .

(١) سورة التوبة ٩ / ٣٦

(٢) سورة التوبة ٩ / ٢٩

(٣) زاد المعاد : لابن القيم ج ٢ ص ٨١

(٤) سورة الحج ٢٢ / ٤٠

لكن هل كان أبو بكر وعمر والخلفاء من بعدهم سيفقون مكتوفي الأيدي حين وقف المشركون على حدود بلاد الاسلام خائفين لا يهاجمون المسلمين في عقرب دارهم ؟ .

وهل سأل واحد من المجاهدين نفسه : لم خرجنا للجهاد ؟ فقال : خرجنا ندافع عن وطننا المهدد أو نصعد عدواناً من الفرس أو الروم من حولنا . . أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنائم ؟

لا . . إنهم خرجوا يحطمون معاقل الظلم والطاغوت في الأرض كلها حتى يحرروا الشعوب من ذل العبودية للبشر ويبلغون دعوة الله إلى الناس دون عوائق وحواجز . وبذلك سار المسلمون حاملين راية التوحيد والعدالة شرقاً وغرباً من بلاد الصين إلى بلاد الاندلس ومن أقصى الشمال إلى جنوب أفريقيا وهم يقولون ما قاله ربهى بن عامر وحذيفة بن محصن والمعيرة ابن شعبة لرستم قائد جيش الفرس في الفارسية حين سألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية قبل المعركة : ما الذى جاء بكم ؟ فيكون الجواب : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نقضي إلى الجنة أو الظفر (١) .

عبادة العباد وضيق الدنيا وجور الأديان المحرفة موت للشعوب . ولا خير يرجي من أناس هذا حالهم . وإذا كان لابد من بعث للنوع الإنسانى وتحرير له من كل هذا الضلال فلا بد من خوض المعارك وحمل السلاح في وجه كل من وقف في طريق هذا الزحف المبارك حتى يصل إلى غايته في إنقاذ البشرية من موتها وضيقها وجهلها إلى حيث الحياة والرحمات .

(١) تاريخ الفتح الاسلامى فى عهد الرسول عليه السلام وعصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية للاستاذ محمد نحر الدين ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

من أجل هذا كان الجهاد الإسلامى الذى انطلق حملة رايته يحملون معهم
الرحمة المهداة والنعمة المسداة التى اكتملت فى شخص رسول الله محمد صلى الله
عليه وسلم وفى رسالته السمحة الرحيمة فكان حمل السيف دفاعاً عنها وانطلاقاً
بها وإبلاغاً لها إلى العالم كله تحقيقاً للهدف من هذه الرسالة : « وما أرسلناك
إلا رحمة للعالمين » .

الوصية السادسة :

قوله تعالى :

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده

- ١ - اليتيم إنسان محتاج إلى رعاية .
- ٢ - اليتيم في المجتمعات الجاهلية .. وكيف ضاع حقه .
- ٣ - عناية القرآن باليتيم .
(أ) تورثه .
(ب) إقامة وصى عليه وواجبات هذا الوصى .
(ج) اليتيمة الغنية والفقيرة وذات الجمال والخالية من الجمال وحكم تزوج الوصى بها .
- ٤ - متى يدفع لليتم ماله ؟ :
(أ) ما هو الابتلاء المأمور به ؟ وإلى متى ؟
(ب) ما معنى : حتى يبلغ أشده ؟
(ج) لماذا طالب بالإشهاد على دفع مال اليتيم ؟
- ٥ - جزاء من يعتدى على مال اليتيم .
- ٦ - ما حكم مخالطة الأوصياء لليتامى ؟
- ٧ - اليتيم الفقير ورعاية القرآن له ومحافظته على إنسانيته وكرامته .

١ - اليتيم إنسان محتاج إلى رعاية

يولد الإنسان لا يعرف شيئاً فهو عاجز ضعيف - فيجد أيدٍ رحيمة تحمله وقلوباً حانية ترحمه وأماً تحوطه بالعناية والرعاية . تفضل حياته على حياتها وتجذب في السهر والألم والمشقات لذة وسعادة كما يجد أباً يسعي يومه كله ويبدل من جهده وعرقه ما يوفر له ملبساً نظيفاً وطعاماً شهياً ومسكناً جميلاً وتسليّة تذهب الهم . كما يرى الإنسان عيوناً ترقبه في غدوه ورواحه تحرسه وتحافظ عليه وتوفر له الأمان والإسعاد وهو في مرحلة لا يعرف معنى ألم الجوع أو العرى ولا يحس خوفاً من مستقبل أو عدو : فقد كفل له أبواه كل هذا بدافع فطري غريزي في الأبوة والأمومة .

لكن هناك من يفتح عينيه على الدنيا فلا يجد شيئاً من هذا . فقد مات أحد أبويه أو كلاهما وهم « اليتامى » بل هناك من لم يهتدوا حتى إلى أسماء آبائهم أو أمهاتهم وهم : اللقطاء . فيدب هذا اليتيم وذلك اللقيط على الأرض - وفي أول عهده بالحياة - كسير الجناح : لا يظهر بحميه ولا سند يدفع عنه فقد مات حاميه وسنده . وهو في فترة يتمه أحوج المخلوقات للعناية والرعاية . فهو كالنبتة الصغيرة تميلها الريح كيف شاءت إن لم يكن لها ما يتعهد بها بالسقي والمحافظة سرعان ما تزل وتنفق الحياة . ومن واجب الإنسانية أن تحفظ على هذه النبتة الضعيفة حياتها وأن تمدّها بما تحتاج إليه وأن تحوط هذا اليتيم بألوان من العطف والمودة حتى تعوضه ما فقدته من أب رحيم وأم رءوم ، وإلا أضاعت جزءاً من كيانها وفقدت جانباً مهماً في نظامها وأدى إهالها لهذا البأس إلى أنواع من الشقاء والضياع فيوجد بين أبنائها إنسان محروم من الرحمة وهي بذلك تخلق مجرماً قاسياً يهدد أمنها وينتقص من كرامتها .

واليتيم إذا ما أحيط بعناية المجتمع وأتيحت له الفرص ربما أصبح من عظماء الرجال وقادتهم .

وهذا هو خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخريين محمد بن عبد الله كان يتيماً فقيراً فأواه الله وأغناه وجعل منه أعظم إنسان في الوجود : « ألم يجدك يتيماً فأوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى » (١).

إلا أنه ليس كل كحمد صلى الله عليه وسلم .. فالله قد جعله يتيماً حتى لا تكون ليد بشر أثر في تربيته فشأن رسل الله ما قال الله لموسى : « ولتصنع على عيني » (٢).

وكما قال محمد عليه السلام : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » (٣).

لهذا كان لا بد للمجتمع من القيام بواجب اليتيم وإحساس كل رجل فيه أنه أب لكل محروم من الأبوة .. وشعور كل أم أنها أم لكل محروم من عطف الأمومة وإلا فهو للضياع والهلاك لهذا المخلوق الضعيف والتفكك والانهار لهذا المجتمع الذي فقد الانسانية والرحمة .

٢- اليتيم في مجتمعات الجاهلية .. وكيف ضاع حقه !

لقد كانت المجتمعات الجاهلية قبل الاسلام تنظر إلى اليتيم أنه لا ستيديحيمه ولا أحد يمنع عنه الظلم وأنه ليس أهلاً لأن يرث مال أبويه إن كان لهما مال وشعارهم في ذلك . أن الأيتام لا يحملون سيفاً ولا يركبون فرساً ولا ينكون « يرمون » عدواً ويكسبون عليهم ولا يكتسبون .

وكانت النساء اليتيمة أسوأ حالا وأحط شأناً في مجتمع لا يرسم أبداً : فإذا كانت ذات مال وجمال ضمها وإيها طمعاً في مالها وجمالها ولم يقسط في صداقها وإذا كانت فقيرة قليلة المال رغب عن نكاحها فعاشرت مظلومة مهانة ضائعة .

(١) سورة الضحى ٩٣ - ٦ - ٨

(٣) سورة الطور ٥٢ / ٤٨

(٢) سورة طه ٢٠ / ٣٩

« روى عن عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة رضی الله عنها عن قول الله تعالى : وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى . . فقالت : يا بن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق . فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن .

وقالت عائشة في قول الله تعالى : وترغبون أن تنكحوهن : رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال . قالت : فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذ كن قليلات المال والجمال . « (١)

٣ - عناية القرآن باليتيم

أرأيت كيف ضاع حق اليتيم في المجتمع الجاهلي الذي لم يستنر بنور الوحي فلم يعرف أين الطريق في حين أن اليتيم محتاج إلى العون ومد يد المساعدة ؟

وكان لا بد للثورة التي أعلنها الاسلام على كل ألوان الظلم أن ترفع عن الأيتام واللقطاء وأهل الفاقة والمسكنة ما هم فيه من ضيق وكرب وما يشعرون به من ظلم مجتمعاتهم .

وكان لا بد لهذه الثورة أن تعيد لهم إنسانيتهم وكرامتهم وتشعرهم بأنهم جزء من مجتمع لا يعطيهم تفضيلاً وإنما يبذل لهم ما يبذل فرضاً وواجباً كما قال المولى سبحانه : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » (٢) .

وثورة الاسلام ثورة ربانية : حين تقرر أمراً من الأمور تربطه بمصدر

(١) أخرجه البخارى في كتاب التفسير باب . سورة النساء .

(٢) سورة الذاريات ١٩/٥١

الخير الأزلى وهو الله تعالى فهي حين تأمر بالاعطاء والاتفاق تسكب السكينة والسعادة في قلب المعطي والآخذ . فالأول له أجر كبير رغم أنه لا ينفق من ماله كما قال له ربه : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (١) » .

والثاني : يحس بأنه يعيش في مجتمع متراحم متكافل وأن عليه واجبات يؤديها لله وللمجتمع الذى حفظ ضياعه ورد له اعتباره وأبقى عليه حياته فتكون الوحدة الاجتماعية بل والوحدة الانسانية بين البشر ولقد رأيت خلال آيات الله في كتابه كيف اعتنى القرآن باليتيم في ثلاثة وعشرين موضعاً حتى قرر له حقه كاملاً ورفع عنه كل ظلم وجعل له آلاف الآباء والأمهات بدل أبويه . . . بل كان أرحم به من والده وأمه :

(١) توريث اليتيم :

وتبدو مظاهر هذه العناية وتلك الرحمة بتوريث اليتيم بعد أن كانت المجتمعات الجاهلية لا تورثه . قال تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » (٢) .

بل أصبح لليتيمه حق في الميراث بناء على هذا الحكم : فالولد يشمل الذكر والأنثى لذلك فضله بقوله : « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

وإنها لبداية طيبة يبدأ بها الأيتام حياتهم وتغنيهم عن ذل المسألة وترد عنهم شره الطامعين وتشعرهم بعزتهم وكرامتهم .

(ب) إقامة وصي عليه . . وواجبات هذا الوصي :

ولما كان هذا الطفل الصغير لا يستطيع القيام بشؤون نفسه فضلاً عن أن يصرف ماورثه عن أبيه أو أمه . . نصب الإسلام عليه وصياً ليتعهده ويتعهد

ماله بالتميز والحفظ إلى أن يصل إلى مرحلة الفهم والادراك وحسن التصرف
فيسلمه هذا الوصي ماله .

ولا تكون الوصية لأي إنسان إنما يشترط الاسلام شروطاً كلها لصالح
اليتيم :

فيشترط في الوصي : أن يكون رشيداً معروفاً بحسن التصرف وسلامة
التقدير ومشهوراً بالعدالة . أميناً . صالحاً في دينه . حسن الأخلاق في معاملته
للناس .

ومع هذه الشروط يتعهد الله الوصي بالنهي بعد النهي | اليوقظ — دائماً —
حسه وقلبه حتى لا يحيف ولا يميل . فالمال كالشبهوات ينهي الله عن اقترابهما
خشية الوقوع في آثامهما وخطرها . فيقول سبحانه : « ولا تقربوا مال اليتيم
إلا بالتي هي أحسن » .

يقول أبو السعود : « توجيه النهي إلى قربانها لما مر من المبالغة في النهي
عن أكله وإخراج القربان النافع عن حكم النهي بطريق الاستثناء أي
لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلا بالتي هي أحسن » (١) .

إنه يقول للأوصياء : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب
ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً » (٢) .

ففي هذه الآية يوجه الله الأوصياء إلى ضرورة الإنفاق على اليتامى من
أموالهم نفقة معتدلة تشمل كل ما يحتاج إليه من مأكل وملبس ومسكن وتعليم
وعلاج . كما يوجههم إلى ناحية مهمة في حياتهم كان يبدو فيها ظلم اليتيم
واضحاً : وذلك أنهم كانوا يستبدلون الخبيث بالطيب وقد كانت ثروتهم
حيوانية ويقولون : رأساً برأس . . وشاة الوصي هزيلة وشاة اليتيم ثمينة قوية

(١) أبو السعود ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) سورة النساء ٤ / ٢

فأين هذا من ذلك؟ وقد تكون أموال اليتيم أرضاً زراعية جيدة أو عمارة حديثة جيدة الطراز أو حيوانات من نوع ممتاز فيقطع الوصي في استبدالها.

وأخطر من عملية الاستبدال أكل أموال اليتيم دون عوض أو مقابل.

إنها لصورة محزنة أن يقوم الوصي بضم مال اليتيم إلى ماله حتى إذا بلغ اليتيم سن الرشد وطلب شيئاً من هذا المال لم يجد شيئاً بحجة أنه أتقنه عليه أو اجتاحته جائحة أو يختلق ما شاء من الحجج والأكاذيب.

ويزيد هذا الأمر جرماً وشناعة أن يكون الوصي صاحب مال فلا يكفي بماله بل يسلب هذا الطفل العاجز ماله ويضمه إليه. وهذا ما تفيدته كلمة « ولا تأكلوا أموالكم إلى أموالكم ».

وويل لمن فعل هذا. وويل لمجتمع يرضي بهذا. وصدق الله إذ حكم على هذا الفعل فقال: « انه كان حوياً كبيراً ».

إن واجب الوصي تحدده هذه العبارة: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

يقول القرطبي: « أى بما فيه صلاحه وشميره وذلك بحفظ أصوله وشميره فروعاً (١) ».

فلا يكفي الإحسان فقط وإنما لا بد من اختيار أحسن الوسائل التي تحفظ هذا المال وتنميه. وبذلك يكون بمنزلة الأب يشعر اليتيم بعطفه وحرصه على ما ينفعه ويريه كأحسن ما تكون التربية فقد أصبح هذا الإنسان أمانة يؤديها إلى أهلها: « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها (٢) ».

« فليؤد الذى أوتمن أمانته وليتق الله ربه (٣) ».

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣٤

(٢) سورة النساء ٤ ٥٨ (٣) سورة البقرة ٢ ٢٨٣

(ج) اليئمة الغنية واليئمة الفقيرة . وذات الجمال والخالية من الجمال وحكم

تزوج الوصي بها :

هناك مظهر من مظاهر الجور يقضى عليه الإسلام وذلك في حالة اليئمة الغنية والفقيرة وذات الجمال والمحرومة منه :

فالحالة الأولى — كما سبق — كان الولي يتزوجها فلا يقسط في صداقها ويستولى على مالها فيكون دافع الزواج مادياً لآ إنسانياً تقام عليه أسرة بسودها الرحمة والتعاطف .

وفي الحالة الثانية : إذا ما كانت فقيرة وليست ذات جمال رغب عنها وتركها وأهلها فجمعت بين اليم والفقر والإهمال وظلم الولي فعاشت مهينة الجناح كسيرة القلب .

فكيف عالج القرآن هذه الظاهرة ؟

تحدد ذلك آيتان من سورة النساء :

أولاهما : الآية الثالثة في السورة : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا » .

وثانيهما الآية ١٢٧ في السورة : « ويستفتونك في النساء قل : الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط .

والآية الأولى تعالج الظاهرة الأولى فإنها نهى للأولياء أن يتزوجوا اليتيمات إذا خاف الولي ألا يقسط فيها وأن يبخصها صداقها ويستولى على مالها وله في الزواج من غيرها متسعا من واحدة إلى أربع إذا ما تأكد من العدل بينهن وإلا وجب الاقتصار على واحدة .

وإذا ما كان القصد من زواج الولي باليتيمة هو التمتع بها وإسعادها ودفع المهر المناسب لها ولم يكن الغرض منه أكل مالها بالباطل تحت ستار الزواج وكان الوصي أهلاً للعدل في المعاملة : يرد إليها مالها حين يؤنس منها الرشد بعد البلوغ فان حكمها حينئذ حكم الزواج من غيرها : لها مهر المثل ولها على زوجها ما لكل زوجة على زوجها من حقوق يقول صاحب كتاب الانتصاف : « الآيه بيان حكم اليتامى وتحذير من التورط في الجور عليهن وأمر بالاحتياط وفي غيرهن متسع إلى الأربع (١) .

هذا حكم اليتيمه الجميلة صاحبة المال فاذا كانت قبيحة المنظر فقيرة الحال فاذا يكون حكمها ؟؟

الآية الأخرى في الصورة تبين الواقع منهم فعلا : وهو أن الواحد منهم إذا كانت عنده يتيمة غنية حبسها حتى الموت دون أن يتزوجها فيرثها . وإن كانت فقيرة أصبحت لا مكانة لها عنده على الإطلاق يسومها ألوانا من الضيق والكرب والمذلة .

وواجب الأمة إزاء هذه الحالة أن تمنعها وأن تقف في وجه هذا الظلم كما يفهم من قوله تعالى : « وأن تقوموا .

يقول الزمخشري : « وأن تقوموا » خطاب للأمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم ولا يخلوا أجداً يهتضمهم (٢) .

وكان عمر — إنطلاقاً من فهم الإسلام وتطبيقاً لعدالته — إذا جاءه ولي اليتيمة نظر فان كانت جميلة غنية قال زوجها غيرك والتمس لها من هو خير منك وإن كانت دميمة ولا مال لها قال : تزوجها فأنت أحق بها (٣) .

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال — لأحمد بن محمد الاسكندري المالكي وهو هامش من كتاب الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٣٧٥ (٣٦٢) الزمخشري ج ١ ص ٤٢٧ .

٤ - متى يدفع لليتيم ماله ؟

ومهمة الوصي — إذن — أن يحفظ أصول مال اليتيم ويشمر فروعه فاذا ما وصل إلى سن معينة وجب دفع ماله إليه بعد أن يكون أهلاً للتصرف في ملكه ولا بد من الإشهاد على إعطائه هذا المال — وهنا تتساءل : ما هو الابتلاء المأمور ؟ وكيف يكون ؟ وإلى متى ؟ وهل يمنح الوصي أجراً على وصايته ؟ وكيف يقدر هذا الأجر ؟ وما فائدة الإشهاد على دفع مال اليتيم ؟

تقول الآية : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا . ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً » (١) .

(١) ما هو الابتلاء المأمور به ؟ وإلى متى ؟

والابتلاء في اللغة : الاختبار والامتحان . ويوضحه المفسرون فيقول أبو السعود : « تتبعوا أحوالهم في صلاح الدين والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بما يليق بحالهم فإن كانوا من أهل التجارة فبأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعاً وابتياعاً . وإن كانوا ممن لهم ضياع وأهل وخدم فبأن تعطوهم منه ما يصرفونه في نفقة عيدهم وخدمهم وأجرائهم وسائر مصارفهم حتى تتبين لهم كيفية أحوالهم » (٢) .

وهذا الاختبار ما هو إلا إعداد لليتيم ليتحمل بنفسه أعباء الحياة قبل أن يبلغ الحلم وذلك بالتدرج معهم في تكليفهم ببعض الأعمال حتى يأنس المولى من اليتيم رشداً .

(١) سورة النساء ٤/٦

(٢) تفسير أبي السعود ج ١ ص ٣١٧

وفي تنكير كلمة « الرشد » إشارة إلى الاكتفاء بنوع معين لا يصل إلى مرحلة الكمال . . والابتلاء مرحلة سابقة على بلوغ النكاح كما يفهم من قوله تعالى : « وابتلوا اليتامي حتى إذا بلغوا النكاح » .

معنى هذا أن الإسلام لا يهتم في الوصايا على اليتيم في حفظ ماله أو تسميره بحسب ولكنه يهتم قبل هذا بتربية اليتيم واعداده للحياة إعداداً سليماً . وبعبارة أوضح : إن اليتيم في تقدير الإسلام أهم من ماله مهما بلغ . وعلى الولي أن يقوم مقام الأب . وليس هناك أب لا يحرص على تنشئة ابنه بحجة أنه يجمع له الأموال . فلا فائدة في مال لا يحفظه ابن صالح لوراثته .

« وقد اختلف في الإبتلاء والرشد . فالإبتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه : أن يدفع إليه ما يتصرف فيه حتى يستبين حاله فيما يجيء منه . والرشد : التهدي إلى وجوه التصرف . وعن ابن عباس : الصلاح في العقل والحفظ للمال . وعند مالك والشافعي . الإبتلاء . أن تتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والإعطاء وتبصر مخايله وسيلة إلى الدين . والرشد . الصلاح في الدين لأن الفسق مفسدة للمال . هذا إذا أنس منه الرشد عند حد البلوغ فان لم يأنس منه الرشد فقد قال أبو حنيفة . ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة فاذا زاد عليها سبع سنين — وهى مدة معتبرة في تفسير أحوال الإنسان كما فى قوله عليه السلام . « مهروم بالصلاة لسبع » دفع إليه ماله أنس منه الرشد أو لم يأنس . وعند أصحابه . « لا يدفع إليه أبداً إلا بائناس الرشد » (١) .

على أن هناك أمرين يسبقان دفع مال اليتيم إليه . الأول توضحه هذه العبارة من الآية . « ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا » . فهى نهى للأوصياء عن أن يأكلوا أموال اليتامى مهما كانت دوافع هذا الأكل فقد يكون الدافع هو الإسراف فى الإتفاق على اليتيم قبل أن يبلغ الحلم ويرشد فيجب

دفعها إليه فهم يحسون نحو أموال اليتامى غير ما يحسون نحو أموالهم . فأموال اليتامى ينفقون منها باسراف ودون مبالاة أما أموالهم فلا ينفقون منها إلا بقدر وإذن فلا بد من الحرص والمحافظة على مال اليتيم حتى يسلمه إليه كاملاً .
وثانى الأمرين :

هل للوصي أجر على وصايته ؟

يقول القرآن : « ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » .

فالغنى لا يأخذ أجراً على وصايته مادام ذا مال يستطيع أن يعيش بالاتفاق منه ، وقد أوجب الله استعفاف الأغنياء بصيغة الأمر التي تغير التوكيد واختيار « يستعفف » على يعف .

أما الفقير — وهو المحتاج — فله أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف بشرط أن تستغرق أعمال الوصايا كل وقته وأن تعطله عن عمله الذى هو مصدر رزقه قال أبو السعود : « عن النبي ﷺ أن رجلاً قال له : إن فى حجرى يتيماً أفأكل من ماله ؟ قال : بالمعروف غير متائل مالا ولا واق مالك بماله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما . أن ولى يتيم قال له : أفأشرب من لبن إبله ؟ قال : إن كنت تبغى ضالتها وتلوط حوضها وتنهأ جرباها .. وتسقيها يوم ورودها فأشرب غير مضر بنسل ولا ناهك فى الحلب .

« وعن محمد بن كعب : يتقرم كما تتقرم البهيمة وينزل نفسه منزلة الأخير فيما لا بد منه » .

« وعن الشعبي : يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه . وعنه : كالميتة يتناول عند ابضرة ويقضى » .

وعن مجاهد : يستسلف فإذا أيسر أدى . وعن سعيد بن جبير : إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فإن أيسر قضاؤه وإن أعسر فهو فى حل .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى منزلة ولي اليتيم إن استغنيت استعفت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وإذا أسبرت قضيت (١)

(ب) ما معنى : حتى يبلغ أشده ؟

ومن حقنا أن نعرف الغاية من قوله تعالى : حتى يبلغ أشده : ما معنى كلمة الأشد ؟ وهل يجوز لأي إنسان أن يقرب مال اليتيم إذا ما بلغ أشده ؟

أما الأشد فقد قال صاحب القاموس المحيط : حتى يبلغ أشده : أى قوته وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، واحد جاء على بناء الجمع كأنك ولا نظير لهما . أو جمع لا واحده من لفظه أو واحدة شدة — بالكسر — مع أن فعله لا تجمع على أفضل . أو شد ككلب وأكلب أو شد ككذب وأذؤب وماها بسموعين بل قياس (٢) .

قال الليثى : الأشد مبلغ الرجل الحكمة والمعرفة . قال الفراء : الأشد : وأحدها . شد في القياس ولم أسمع لها بواحد . وقال أبو الهيثم . واحدة أشد . شدة كما أن واحدة الأنعم نعمة ، والشدة . القوة والحلاوة والشديد . الرجل القوى (٣) .

وقال القرطبي : أشده : معنى قوته فقد تكون في البدن وقد تكون في المعرفة بالتضربة ولا بد من حصول الوجهين فان الأشد وقعت هنا مطلقة — فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهب في شهواته ويبقى صعلوكا لا مال له . « (٤)

(١) أبو السعود ج ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) القاموس المحيط ج ١ ص ٣٠٥ .

(٣) مفاتيح الغيب ج ١٣ ص ٢٣٤ .

(٤) القرطبي ج ٧ ص ١٣٥ .

والغاية في هذا النهي قد أوضحناها فيما سبق وعرفنا السن التي يدفع إلى اليتيم فيها ماله واختلاف الفقهاء في ذلك . . وفي الكلام محذوف دلت عليه الآية الأخرى قال الطبري : « وفي الكلام محذوف ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ظهر عما حذف وذلك أن معنى الكلام : ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وإذا بلغ أشده فأنت منه رشداً فأدفعوا إليه ماله لأنه جل ثناؤه لم ينه أن يقرب مال اليتيم في حال يتيمه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ليحل لوليّه بعد بلوغ أشده أن يقربه بالتي هي أسوأ ولكن نهام أن يقربوه حياطة منه له وحفظاً عليه ليساموه إليه إذا بلغ أشده (١) .

ومن هذا يتبين أن اليتيم لا يجوز أن يقرب ماله على أي حال بلغ أشده أم لا ولكن الله نيه على معاملته بالتي هي أحسن إلى أن يبلغ أشده جفظاً له من الضياع والاعتداء . أما غيره فيستطيع الدفاع عن نفسه بما وهبه الله من قوة يقول القرطبي : « وليس بلوغ الأشد مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة . وخص اليتيم بالذكر لأن خصمه الله والمعنى : ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده » (٢) .

(ج) لماذا طالب بالإشهاد على دفع مال اليتيم؟

بقي أمر هام فرضه الإسلام - رعاية لليتيم - وهو الإشهاد على دفع ماله إليه . قال تعالى : فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم . وكفى بالله حسيباً .

فلماذا طالب بالإشهاد؟ ولمصلحة من؟

أن النظرة الأولى تظهر أن هذا الإشهاد لتأكيد براءة الأوصياء من تهمة أكل أموال اليتامي ظلماً . . . والواقع أن الإشهاد في مصلحة اليتيم أكثر وأظهر . وذلك أن الإشهاد يقتضي المحاسبة للأولياء على تصرفاتهم في أموال اليتامي

(١) تفسير الطبري ج ١٢ ص ٢٢٤ .

(٢) القرطبي ج ٧ ص ١٣٥ .

منذ أن تولوا الوصاية عليهم وهذه المحاسبة تقتضى من الشهود المراجعة والتدقيق قبل أن يشهدوا . وفي هذا ضمان لحق اليتيم لأنه لن يترك للوasi يحاسبه كما يشأ ويبعث بماله كما يمليه هواه .

على أن للشهاد فائدة أخرى أيضاً هي أن دعوى الأوصياء أنهم ردوا إلى اليتامى أموالهم لن تسمع ولن تقبل إلا أن يكون هناك من الشهود العدل من يشهد على صحتها وإلى فهي مرفوضة وعليهم أن يدفعوا لليتامى أموالهم وإلا اعتبروا آكلين لها بغير حق .

٥ — جزاء من يعتدى على مال اليتيم :

هذا هو الواسي وما يجب عليه إزاء اليتيم . فما جزاء المقصرين والآكلين لمال اليتيم ؟

إن القرآن - في منهجه التربوي - لا يكتفي بمجرد الأوامر والنواهي ولا يراقب ظواهر الناس فحسب إنما يوقظ حس المؤمن ويغرس فيه شجرة المراقبة لربه في كل لحظة من حياته .

فهو بعد أن يأمر الأوصياء باقتناء اليتامى ثم دفع أموالهم إليهم والاستغفاف في حال الغنى والأكل بالمعروف في حال الاحتياج . والشاهد على إعطائهم حقهم . يختم ذلك بقوله : وكنى بالله حسيباً . ليعرف كل وصي أنه مهما زور على من يشهد ومهما أفتق الناس بأكله بالمعروف فلن يستطيع أن يغالط من يعلم السر وأخفى ومن هو أقرب إليه من حبل الوريد .

ويصور مال اليتيم بصورة يهابها كل من يعرف أنه محاسب أمام الله وذلك إذ يقول : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » (١) .

يقول أبو السعود : « أى سيدخلون ناراً هائلة مبهمة الوصف . روى أن آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأذنيه وعينه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا^(١) فكيف يرضى عاقل لنفسه أن يأكل مالا ظالما فيكون ناراً يأكلها في بطنه فوق ما يراه وما ينزل به من عذاب السعير ؟ ولا يدعهم القرآن عند جد التخويف من هول العذاب إنما يستثير عواطفهم : فمن ذا الذى لا يجب أن يرى ولده فى أعلى منزلة وأعلى مكانة ؟

ر من يضمن حياة الوالد ليتحقق لأولاده هذا الأمل ؟

ربما تر كهم بين لحظة وأخرى فى كفالة وصي لا يدري ماذا سيصنع بهم ! يقول القرآن : « وليحسن الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليقتوا الله وليقولوا قولاً سديداً^(٢) .

فليستحضر كل وصي هذه الحقيقة لنفسه: الذرية الضعاف من لهم إلتقوى الله والقول السديد . بهما يتبهاً للأبناء كل خير وإلا نزل بهؤلاء الضعاف ما أنزل هذا الظالم بمن فى حوزته من الأيتام « والمثل بالمثل والبادئ أظلم .

وهذا ما صنعه الله بالغلامين اللذين أخرج لهما الخضر كنزها لأن أباهما كان صالحاً : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزها رحمة من ربك^(٣) .

إن الأوصياء آباء قبل أن يكونوا أوصياء وهم يتمنون — فيما لو عاجلهم الأجل وتركوا أطفالاً — أن يكون الأوصياء عليهم عدولا أمناء تطبع الرحمة كل تصرفاتهم مع أولادهم . فلماذا لا يتمنون لأولاد غيرهم نفس ما يتمنون لأولادهم ؟

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٣١٩

(٣) سورة الكهف ١٨/٨٢

(٢) سورة النساء ٤/١٠، ٩

إن من واجبهم أن يخشوا الله وأن يتقوه فيهم وأن يعاملوهم معاملة حسنة فلا يوجهوا إليهم من الأموال إلا ما فيه السداد والرشد ولا يقرّبوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن .

٦ - ما حكم مخالطة الأوصياء لليتامى؟

وإذا كان هذا هو حال من يقرب مال اليتيم فكيف تكون مخالطة الأوصياء لليتامى ؟

هل يأكل اليتيم وحده ويسكن وحده حتى لا يقع وصيه في هذا الحرج؟ أم أن في هذا إشعاراً له باليتيم والاتصال عن الأسرة التي يعيش فيها؟ كما أن هذا أمر شاق على النفوس وصعب في التنفيذ؟

روى أنه لما نزلت . « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً .. الآية .. » تحامى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أموالهم فشق ذلك عليهم فذكروه للنبي ﷺ فنزل قوله تعالى . « ويسألونك عن اليتامى ؟ قل . إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فآخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعتكم إن الله عزيز حكيم » (١) .

وبهذه الإجابة الواضحة نعرف كيف تكون مخالطة الأوصياء لليتامى .. إذ لا بد من التعرض لأحوالهم وأموالهم ومخالطتهم ولكن بطريقة الإصلاح لا بطريقة الإفساد .. والحرص على مصلحتهم لا استغلال ضعفهم . وهذه الحالة خير من الابتعاد عنهم خشية الوقوع فيما نهى الله عنه من أكل أموالهم بالباطل .. وإذا أصبح اليتيم عضواً في الأسرة يأكل ويشرب ويلبس كفرد فيها فقد أوجب الله على الأوصياء أن يعتبروا اليتامى إخوانهم .. ومن واجب الأخوة التعاون والتناصر والتكافل وحسن اللقاء والحرص على ما ينفع أخاهم وكما قال الرسول ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٢) .

(٢) متفق عليه .

(١) سورة البقرة ٢/٢٣٠ .

وعلى طريقة التريية القرآنية لاتدع الآية الموصى يستغل هذه المخالطة لينمي ماله ويستملك مال اليتيم إنما تقول . « والله يعلم المفسد من المصلح » وعلم الله لا يغيب عنه شيء وكل إنسان مجزى بنيته . « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » (١) .

وتذكروهم برحمة الله التي تستحق الشكر فتقول . « ولو شاء الله لأعتكم » وكلفكم مالا تطيقون ومنعكم من المخالطة وألزمكم أن تهثوا لليتيم طعاماً وشراباً خاصاً ولكنه لطف بكم فأباح لكم هذا الأمر فليخف كل وصي ربه وليتق الله فيما كلفه به إلهه فان الله عزيز حكيم .

٧ - اليتيم الفقير ورعاية القرآن له ومحافظته على إنسانيته وكرامته ؟

هذا شأن اليتيم الذي ورث مالا وما أعطاه الله من حقوق في المجتمع فكيف عاج القرآن مشكلة اليتيم الفقير الذي لا مال له ؟ وكيف حفظ إنسانيته وكرامته ؟

إن الله — جلت حكمته — لم يترك هؤلاء لعطف القلوب . يعطيهم من يشاء ويعنهم من يشاء إنما عنى بهم وفرض لهم نصيباً في المال يعينهم عن ذل السؤال . فجعل لهم نصيباً في التركة إذا حضروها قال تعالى . « وإذا حضر القسمة أولو القربي واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » (٢) .

ومع أخذ نصيبهم كلام طيب لا يشعرون معه أن هذا تفضل وعطاء من الورثة : إنما هو حقهم أخذوه .

وإذا كان هذا الذي يأخذه اليتامى من أموال التركة محل خلاف : هل

(١) متفق عليه .

(٢) سورة النساء ٨/٤

هو من باب الصدقة أو الفرض؟ وهل نسخ حكمه أم مازال مفروضاً فهناك بابان مفروضان في المال العام يأخذ منهما اليتيم حقه دون حاجة إلى أن يسأل أحداً من الناس .

الأول : خمس الغنيمة : وهي ما كسبه المسلمون بعد قتال . قال تعالى : «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .» (١)

ثانيهما : التيمم . وهو ما كسبه المسلمون من الكفار دون قتال . ولليتم سهم مفروض فيه قال تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل (٢) .

وهكذا لم يدعهم الله للاحسان وحده إنما جعل لهم نصيباً في بيت المال حتى لا يكون اليتيم عرضة لأن يجوع يوماً ويشبع أخرى أو يكتسى أناً ويعرى أناً آخر .

وإذا لم يصل نصيب بيت المال إلى اليتيم أو لم يبلغه نصيبه فاجتمع الاسلام مجتمع متكامل متراحم . والله يجعل الاتفاق على اليتيم مقررونا بالاتفاق على أحب الناس إلى الانسان : أبويه وذى قرابه فيقول : «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل (٣) .

ويقول سبحانه — في وصف أهل البر : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين (٤) .

ويجعل هذا الاتفاق وسيلة للوقاية من عذاب النار ووصفاً للمخلصين من عباده فيقول : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً (٥) .

(٢) سورة الحشر ٥٩/٧

(٤) سورة البقرة ٢٠٧/١٧٧

(١) سورة الأتقال ٨/٤١

(٣) سورة النساء ٤/٣٦

(٥) سورة الانسان ٧٦/٨

ويسوى بين إطعام اليتيم وفك الرقاب فيقول: فلا اقتحم العقبة. وما أدراك
بما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا
إذا متربة (١).

ويحفظ الله لليتم إنسانيته فيذكر رسوله بأنه كان يتيما فيقول: « ألم يجدك
يتيما فأوى (٢) » ؟

وماذا ينتظر كل يتيم من مظاهر الرعاية من ربه أكثر من أن يختار سيد
المرسلين من اليتامى ؟

وبوجه الله الأمر للمسلمين في شخص رسول الله فيقول: « فأما اليتيم
فلا تقهر ويجعل إيداء اليتيم من سمات المكذبين بيوم القيامة فيقول: « رأيت
الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين (٣) » .

كما يهدد المجتمع الذى يضيع فيه حق اليتامى بالفناء والانهيار فيقول في
معرض الكلام عن صب عليهم ربك صوت عذاب: « كلا بل لا تكرمون
اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين (٤) » .

أرأيت كيف اعتنى الله باليتيم وكفله وجعل المجتمع كله له أبا يحفظه
ويصله ويعطف عليه ؟

نعم إنها وصية خالدة نردها ونعرف أن في تطبيقها الخير كله .. إنها
بقوله تعالى: « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده » .

١٦ سورة البلد ٩٠ / ١١ - ١٦

٤١ الماعون ١٠٧ / ١ - ٣

٣٦ (٢) سورة الضحى ٩٣ / ٩٦

٥١ سورة الفجر ١٧ / ١٨٩ - ١٨٦

الوصية السابعة :

قوله تعالى :

وأوفوا الكيل والميزان بالقسط
لا تكلف نفسا إلا وسعها

- ١ — المعاني اللغوية للكلمات . أوفوا — الكيل — والميزان — بالقسط وإعراب بالقسط ؟
- ٢ — علام يدل تطفيف الكيل والميزان ؟
- ٣ — لماذا أمر بإيفاء الكيل بعد النهي عن أكل مال اليتيم ؟
- ٤ — ارتباط الآيات في الإسلام بالعقيدة ؟
- ٥ — دروس من سورة المطففين ؟
- ٦ — عبرة من قصة شعيب وقومه ؟
- ٧ — ماذا نفهم من قوله تعالى : « لا تكلف نفساً إلا وسعها » ؟

١ - المعاني اللغوية للكلمات : أوفو - الكيل

والميزان بالقسط

وإعراب بالقسط - وفائدة كلمة « بالقسط » بعد « أوفوا »

« أوفى ووفى : بلغ تمام الكمال يقال : درهم واف . وأوفيته حقه ووفيته إذا أتممته . وأوفى الكيل إذا أتمه ولم ينقص منه شيئاً^(١) .

والكيل : « بمعنى المكيال . يقال هذا كذا وكذا كيلا ولهذا أعطف عليه بالميزان »^(٢) .

والكيل والميزان : « هما الآلة التي يكال بها ويوزن . وأصل الكيل : مصدر ثم أطلق على الآلة . والميزان في الأصل . مفعال من الوزن ثم نقل لهذا الآلة كالمصباح والمقياس لما يستصبح به ويقاس وأصل ميزان : « موزان » ففعل به ما فعل بميمات^(٣) .

« بالقسط » : أى بالعدل لا بنحس ولا نقصان . « ومنه : أقسط الرجل فهو مقسط ومنه قوله تعالى : إن الله يحب المقسطين . والقسط أيضاً : الحصاة والنصيب يقال : تقسطنا الشيء بيننا .

وأما القسوط : فهو الجور والعدول عن الحق . وبابه : جلس . ومنه قوله تعالى : وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطاباً^(٤) .

« وبالقسط : حال من فاعل « أوفوا » أى : أوفوها مقسطين . أى متلبسين بالقسط .

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ج ١٣ ص ٢٣٤

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣٦

(٣) الفتوحات الإلهية ج ٢ ص ١٠٩

(٥) مختار الصحاح ص ٥٣٤

ويجوز أن يكون حالاً من المفعول أى : أو فوا الكيل والميزان بالقسط أى تامين (١) .

وإذا كانت التوفية هي بلوغ تمام الكمال والقسط هو العدل دون نجس أو نقصان فتكون كلمة نقصان تأكيداً لهذه التوفية — أو أن التوفية من جانب البائع ويبقى جانب المشتري فليس من حقه أن يطلب الزيادة وهذا ما تفيدته كلمة « بالقسط » يقول الفخر الرازى : أمر الله المعطي بإيفاء ذى الحق حقه من غير نقصان وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة . وهذا ما تميل إليه .

٢ - علام يدل تطفيف الكيل والميزان

وتطفيف الكيل وبنجس الميزان خسة في النفس وضيق في الأفق وجشع واستغلال . ولا يفعله إلا كل حقير من الناس وهو دليل الخبث والدهاء . وليست قيمته في بعض حبات تزداد أو تنقص أو دراهم تضاف لميزان أو تبخس فيه إنما دلالتها على مرض نفس صاحبها وحاجة هذه النفس إلى العلاج ودلالتها على سوء الطوية والاجترأ على حدود الله ومن يجترئ على مثل هذا يجره إلى ما هو أعظم منه من حرمان الله .

٣ - لماذا أمر بإيفاء الكيل بعد النهى عن أكل مال اليتيم ؟

إن تطفيف الكيل والميزان فوق أنه خسة حقيرة هو سرقة وطمع ولذلك أمر الله بإيفاء الكيل بعد النهى عن أكل مال اليتيم . إشارة إلى الباعث في الحاليتين وهو هذه النفس المريضة التي تودى بصاحبها في المهالك وتجعله يستغل ضعف الناس . فاليتيم ضعيف لا يعرف ما يصنع وليه في ماله . والمشتري ضعيف لا يستطيع أن يتقن ما أتقنه المطففون من دهاء ومكر . ومجتمع تستغل فيه حاجات الناس وضعفهم هو مجتمع ضعيف غير صالح للحياة . إذ لا قيام لمجتمع دون إحساس كل فرد فيه إنه مسئول عن الآخرين : يرحمهم ويقدر ضعفهم لا أن يظلمهم ويستغل جهلهم وضعفهم . وإذن فسرقه مال اليتيم كسرقة الكيل والميزان كلاهما سرقة واستغلال وظلم بأباه حس المؤمن وينفر منه وجدانه .

٤ - ارتباط المعاملات في الإسلام بالعقيدة ؟

وذلك أن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والدنيا وبين المعاملات اليومية والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج فكلها سواء من حيث الانبثاق من أصل واحد يقوم على أساس الاعتراف بوحداية الله . . ولذلك ساق هذه الوصية بايحاء الكيل والميزان وهو يتحدث عن الأصل الجامع لكل هذه الوصية : ألا تشركوأبه شيئاً .

ولقد توهمت المجتمعات في العصر القديم والحديث أن الدين يجب أن يعزل بعيداً عن واقع الحياة فقد قال قوم شعيب له : « أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد أبؤنا أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الخليم الرشيد » (١) .

لقد فهم هؤلاء أن الصلاة شيء والتقاليد والعادات وموارث الآباء الضلالة وتصريف الحياة وتعاملها شيء آخر . كما ادعى العالم في العصر الحديث أن العبادات طقوس تؤدي في بيوت العبادة أما الحياة بكل ما فيها من معاملات فهي خاضعة لأفكار البشر لا يحكمها قانون سماوى ولا يصرفها دستور ربانى .

والإسلام بعيد عن هذا الضلال فقد جعل وجود الإنسان ذاته - بما يحويه هذا الوجود من حركة ومشاعر - في الليل أو النهار - خالصاً لله وحده : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (٢) .

بل إن الشهوة يقضيها الإنسان عبادة يتقرب بها المرء إلى ربه لقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه : وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » (٣) .

(١) سورة هود ١١ / ٨٧ .

(٢) سورة الأنعام ٦ / ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٣) رواه مسلم .

فركة الإنسان وطعامه وشرابه وعمله يمكن — في مدلول الإسلام — أن يكون عبادة يتقرب بها العبد لخالقه ويحصل بها على أعلى الدرجات . وكما يقول الرسول ﷺ : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا صيام وإنما يكفرها السعي على العيال » (١) .

٥ - دروس من سورة « المطففين »

لهذا توعد الله المطففين بأشد أنواع العذاب فقال : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون .. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٢) .

فالويل له في الدنيا والآخرة :

فهو في الدنيا ساقط الكرامة يفتح على نفسه أبواب النقم والشرور فتبور تجارته ويسوء حاله .

لقد خرج بهذا المسلك عن جماعة المسلمين يقول رسول الله ﷺ : « من غشنا فليس منا » (٣) .

ولم لا ؟ والرحمة قد فارقت قلبه والقناعة نزع من نفسه فزعزت الثقة به وفقدت البركة من شخصه ومن رزقه ؟

ومثل هذا له عذاب عظيم في الآخرة تحمله كلمة « الويل » وهذا الاستفهام ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ ؟

فكيف يجيب هؤلاء الخائنون حين يقف الناس جميعاً أمام رب العالمين فيسأل كل عما قدمت يداه ؟

(١) رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن أبي هريرة .

(٢) سورة المطففين ٨٣ / — ٧٦٦ .

(٣) رواه مسلم .

إن الله يجعل المطففين فجراً يذوقون سوء العذاب : « كلا إن كتاب
الفجار لئن سجين » .

وخياتهم دليل غفلتهم وبعدهم عن الله : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون .. كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » (١) .

ومن هنا وجب أن يصلوا الجحيم : « ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا
الذي كنتم به تكذبون » (٢) .

إن تطفيف الكيل والميزان دليل النسيان لموقف الحساب والتكذيب يوم
الدين . وحق لهؤلاء أن يعيشوا أشقياء معدبين في الدنيا والآخرة : « ومن
أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (٣) .

وفي موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال :
« ما ظهر الغلول في قوم قط إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ولا فشا فيهم الزنا
إلا كثر فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال إلا قطع عنهم الرزق ولا حكم قوم
بغير الحق إلا وفشا فيهم الدم ولا اختر (غدر) قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم
العدو » (٤) .

وقال ابن عباس أيضاً : « إنكم معشر الأعاجم قد وليتم أمرين بهما هلك
من قبلكم : الكيل والميزان » (٥) .

(١) سورة المطففين ٨٣ / ١٤ — ١٧ .

(٢) سورة طه ٢٠ / ١٢٤ .

(٣) رواه الطبراني عن ابن عباس .

(٤) القرطبي ج ٧ ص ١٣٦ .

٦ - عبرة من قصة شعيب

وهذه قصة شعيب يسوقها الله عبرة وذكري وآية لأولي الألباب :
والقصة تلخصها سورة العنكبوت في آيتين حين تعرض مصائر الأمم
المكذبة فتقول :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً . فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر
ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم
جامعين (١) .

وتوضح هذا الإفساد ومظاهره سورة الشعراء حين يقول شعيب لقومه
« أوفوا الكيل ولا تكفونوا من الخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا
الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجليلة
الأولين (٢) .

كما تذكره سورة الأعراف فتقول : وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان
ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير
لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل
الله من أمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا
كيف كان عاقبة المفسدين (٣) .

وتشرحه سورة هود حيث تقول : « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير

(١) سورة العنكبوت ٢٩/٣٦، ٣٧

(٢) سورة الشعراء ٢٦/١٨٠ - ١٨٤

(٣) سورة الأعراف ٧/٨٥، ٨٦

وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خيراً لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ (١) .

لقد جاء شعيب — عليه السلام — ينقذ قومه من جشعهم وطمعهم ويبين لهم الطريق الواضح ويربط هذا كله بمعرفة الله إلهاً واحداً : « ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

ويعرفهم أن الدين للحياة مصرفاً ومهيماً يقضى على كل ما فيها من فساد وينشر فيها العدل والأمان . فإذا كان موقف قومه منه ؟ ؟

لقد كذبوه وتعدوا له بكل صراط يصدون عن سبيل الله من آمن به ويغونها عوجاً . ورموه بالسوء فقالوا : إنما أنت من المسحرين .

وبالكذب : وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين .

وطلبوا منه أن ينزل بهم ما يعدهم من عذاب فقالوا : « فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين » وعجبوا من دعوته « أن الدين للحياة . فقالوا : أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو تفعل في أموالنا ما نشاء ؟

ولما أبطل الله حججهم قالوا : « يا شعيب ما تققه كثيراً مما تقول . وإنا لنراك فينا ضعيفاً . ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز .

وأنذروه ومن معه بالطرده إن لم يعودوا إلى دين الآباء : قال الملأ الذين استكبروا من قومه لتخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا .

ولما لم يجد معهم نصحاً كان وعد الله بالنصر للمؤمنين . لقد أصاب

هؤلاء المكذبين حر شديد فخرجوا مسرعين يطلبون الماء ويبحثون عنه ورأوا سحابة عظيمة حسبوها واقية لهم من حرارة الشمس وفيها الحياة لهم فاذا بها ترميهم بشرر وتصيبهم بالهلاك وأحسوا أن الأرض تنزل تحت أقدامهم وأن العذاب قد حل بهم قال تعالى : « فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم » (١).

وقال سبحانه : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جامعين كأن لم يقنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » (٢).

وهنا حزن شعيب على هلاك قومه ولكنه تذكر ضلالهم وكفرهم فسلى نفسه وقال : « يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » (٣) ؟

وقصة شعيب مثال يتكرر كلما بعدت البشرية عن دين الله لهذا كانت عناية القرآن في وصاياه الخالدة بهذا الأمر الخطير جاء في سورة الإسراء : « وأوفوا الكيل إذا كلمتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً » (٤).

كما جاء ذلك في سورة الرحمن : « ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » (٥).

وكانت هذه الوصية من الوصايا العشر حتى لا تقع أمة الإسلام فيما وقعت فيه أمة شعيب : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » .

(١) سورة الشعراء ٢٧ / ١٨٩ .

(٢) سورة هود ١١ / ٩٥ ، ٩٤

(٣) سورة الأعراف ٧ / ٩٣

(٤) سورة الإسراء ١٧ / ٣٥

(٥) سورة الرحمن ٥٥ / ٩٤ ، ٨

٧ - ماذا نفهم من قوله تعالى

« لا تكلف نفساً إلا وسعها »

ولكن التوفية الكاملة في الكيل والميزان شاقة ومراعاتها في كل حال عسيرة . فقد تزيد شيئاً طفيفاً وقد تنقص مما لا يمكن ضبطه . . . فإذا يكون موقف المسلم من ذلك ؟

إن الله أرحم بخلقه من أن تسهم لا يحملهم مالا يطيقون : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » (١) .

وهو سبحانه دائماً يريد أن يخفف عنكم ولا يكلف الإنسان مالا يستطيع فعله فهو إذن « أمر سهل يسير لا تكلف نفس إلا وسعها فلا يؤاخذنا بما هو خارج عن حدود إرادتنا من زيادة طفيفه أو نقص يسير مادام حسن النية متوفراً . والمعاملات يسودها حب الأخ لأخيه وحرصه على مصالحته وتحريره لأداء الحق إليه كاملاً دون بحس ولا نقصان » .

وهل رأيت أعظم من هذا التيسير حين رفع عن البائع مالا تطيب نفسه من زيادة عن الحق ورفع عن المشتري مالا تميل إليه من نقص فيه . وقال بعض العلماء : لما علم الله سبحانه من عباده أن الكثير منهم تضيق نفسه عن تطيب للغير بما لا يجب عليها له أمر المعطي بإيفاء رب الحق حقه الذي هو له ولم يكلفه الزيادة لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها وأمر صاحب الحق بأخذ حقه ولم يكلفه الرضي بأقل منه لما في النقصان من ضيق نفسه (٢) .

وهذا ما أوضحه الفخر الرازي كما سبق أن بينا .

(١) سورة الحج ٢٢ / ٧٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣٦

وإذن فهذه العبارة تبين أن الله لا يكلف المحال إنما التكليف في حدود
الطاقة ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .
فما أرحم إلهنا العظيم وما أرفع دينه ومبادئه التي تحمل اليسر والتخفيف
وتساير كل قوم استقامت فطرتهم . وتصلح لكل زمان ومكان .

الوصية الثامنة :

قوله تعالى:

وإذا قلتم فاعدلوا - ولو كان ذا قربى

- ١ - المراد بالقول . وكيف يعدل الإنسان فيه؟
- ٢ - كتمان الشهادة . وشهادة الزور والانحراف في القول . وما في ذلك من أضرار .
- ٣ - العدالة في القول من مظاهر الإيمان .
- ٤ - حب العدل القائم على معرفة الله فوق حب ذوى القربى .
- ٥ - الواقع الإسلامى حقق العدالة الكاملة .

١ - المراد بالقول . وكيف يعدل الإنسان فيه ؟

حين نرى وعيد الله لمن طفقوا الكيل ونحسوا الميزان وكيف أن هؤلاء لم يعدلوا بين الناس ولم يقوموا بما أمر به الله ولم يراعوا أخوة ولادينا حين نرى هذا الظلم وما أعدده الله لمن ارتكبه من ذلة وهوان ، نرى القرآن يعرض لنوع آخر من الجور والانحراف ليضع له حداً لا يتخطاه إلا جاهل بهذا الدين يوق نفسه ويخمرها ويشترى عرضاً زائلاً بمغفرة وسعادة وخلود .

وإنها لوصية جامعة تأتي بعد الوصية السابقة لتحقيق بها العدالة في أبيي حلها وأجل صورها إنها قول الله تعالى : « وإذا قلم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

ونحن حين نردها تتوارد هذه الخواطر :

- ١ — ما المراد بالقول وكيف يعدل الإنسان فيه ؟
- ٢ — وماذا في كتمان الشهادة وشهادة الزور والانحراف بالقول من أضرار ؟
- ٣ — وكيف أن العدالة في القول مظهر من مظاهر الإيمان ؟
- ٤ — وكيف أن حب العدل القائم على معرفة الله فوق حب ذرى القربى ؟
- ٥ — وهل الواقع الإسلامي حقق العدالة الكاملة أم هي مجرد وصايا وقرارات لم تنفذ كما هو مشاهد في كل قرارات البشر ؟

والإسلام يقدر « الكلمة » ينطق بها اللسان فترفع أو تخفض وتدخل الجنة أو تذهب بصاحبها إلى النار ولذلك قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل بعد أن بين له معنى الإسلام والإيمان ودله على أبواب الخير وأرشدته إلى أعلى ماني الاسلام وذلك هو الجهاد في سبيل الله ثم قال عليه السلام : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ يقول معاذ : فقلت بلى يا رسول الله فأخذ عليه السلام بلسانه وقال : تكف عليك هذا . قلت : يابني الله وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال :

تكلتك أمك وهل يكب الناس على وجوههم في النار . أو قال : على مناخرهم
إلحصاءد ألسنتهم (١) ؟ .

لذلك كان العدل في القول مأموراً به لأنه أمانة يلزم أداؤها .

وكثير من المفسرين حمل العدل في القول على أداء الشهادة فقط والأمر
والنهي فقط فهل هذا صحيح ؟ .

يقول الفخر الرازي : « قال القاضي : وليس الأمر كذلك بل يدخل
فيه كل ما يتصل بالقول فيدخل فيه ما يقول المرء في الدعوة إلى الدين وتقرير
الدلائل عليه بأن يذكر الدليل ملخصاً عن الحشود الزيادة بألفاظ مفهومة
معتادة قريبة من الأفهام ويدخل فيه أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر وافياً على وجه العدل من غير زيادة في الإيذاء والإيحاء ونقصان عن
القدر الواجب . ويدخل فيه الحكايات التي يذكرها الرجل حتى لا يزيد فيها
ولا ينقص عنها . ومن جملتها تبليغ الرسائل عن الناس فإنه يجب أن يؤديها
من غير زيادة ولا نقصان ويدخل فيه حكم الحاكم بالقول (٢) .

ويخلص هذا ابن كثير فيقول : « يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال
على القريب والبعيد والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل
حال » (٣) .

أرأيت كيف تناول القول كل ما يلفظ به الإنسان في الدين والدنيا . .
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . وما يذكره الرجل من الحكايات في
الشهادة والحكم وفي تبليغ الرسائل عن الناس . . كل ذلك وغيره يجب العدل
فيه دون زيادة أو نقصان .

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح

(٢) الفخر الرازي ج ١٣ ص ٢٣٥

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٩٠

٣ - كتمان الشهادة وشهادة الزور والاحراف في القول

وما في ذلك من أضرار

وليس أشد ضرراً من رجل تطلب منه شهادة حق فيخرس لسانه خوفاً من مجرم أو مجاملة لقريب أو صديق .

إنه بهذا ينشر الرذيلة ويعصف بالأمن ويودي بالطمأنينة من قلوب الناس ويقطع الصلة بين العدالة وكل ظالم فيعميت في الأرض فساداً ويعيث بقمم المجتمع وأمنه وسلامته .. فهل هذا الطريق هو سبيل الحياة المشروعة ؟ وهل أدى كاتم الشهادة خدمة لنفسه أو لغيره ؟

إنه لبنة في المجتمع الضخم يحاول كل عاثر أن يهدمه ومن واجبه أن يعرف أن أداء الشهادة على وجهها تقوية وتدعيم لهذا المجتمع .. فالمجتمع أقام القاضي العادل نائباً عنه في القصاص من المعتدين ومن حقه علينا أن نعينه على أداء واجبه بالشجاعة في أداء الشهادة الحقّة وإلا كان منكرها هو الذي تعمد أن تكوى الإنسانية بنار الجريمة وهو الذي حمى المجرم من أن تناله العقوبة أو يؤدبه القانون .. وهو بذلك آثم مجرم .. لهذا قال الله تعالى : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » (١).

واعتبره من أظلم الناس فقال سبحانه : « ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟؟ » (٢).

وأشد من هذا خطراً شهادة الزور لأنها التواء بالحق إلى درب مظلم وتضليل للعدالة وإهدار للحقيقة لذلك اعتبرها الإسلام من أكبر الكبائر . فعن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً -

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٨٣ .

(٢) سورة البقرة ٢ / ١٤٠ .

قلنا : بلى .. قال : الإشراف بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس .. وكان متكئاً فجلس وقال : ألا وقول الزور .. وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » (١) .

إن شهادة الزور ضربة قاصمة للحقيقة — ربما أهلكت أمة وأبادت شعباً لذلك حذر الرسول منها هذا التحذير الشديد كما أن الانحراف بالقول مهلكة وذلك لأنه أمانة النفاق . قال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » (٢) .

وفي رواية : وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم . والمنافق يتناقض — دائماً — مع باطنه ولا يمكن أن يطبع على هذا المؤمن أبداً .. قال رسول الله ﷺ : « يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب » (٣) .

وسئل رسول الله ﷺ : « أيكون المؤمن جباناً ؟ قال نعم .. قيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم .. قيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا » (٤) .

وهؤلاء الذين يتعرضون للدعوة إلى دين الله وكثيراً ما يزيدون في القول ومن واجب الواحد منهم — كما قال القاضي — أن يذكر الدليل ملخصاً من الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة معتادة قريبة من الأفهام ولكنهم يطمعون في الزلفي من الناس والإكثار من الرواية والتظاهر بالعلم وهم — بهذا — يقضون على أنفسهم ودينهم .. قال رسول الله ﷺ : « إن كذبا على ليس ككذبا على أحد فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (٥) .

ولا بد من التمسك بالكتاب والسنة أمام هؤلاء الأعداء فانهم ضلال وفتنة

(٢) متفق عليه .

(٤) رواه مالك .

(١) رواه البخارى .

(٣) رواه أحمد .

(٥) رواه البخارى .

قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر أمتي أناس دجالون كذابون يحدثونكم بما لم تسمعوا أتم ولا أبأؤكم فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم » (١) .

وهناك لون من هذا الضلال شديد الخطورة .. وهو كذب الحكام علي الشعوب فانه يضل الركب ويهلك القافلة ويقضي على الأمم لذلك قال الله في فرعون : « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » (٢) .

ولأن كذبة الحاكم ليست ككذبة باقي الناس كان لها هذا الوعيد الشديد في قول رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : الشيخ الزاني ، والإمام الكذاب ، والعائل المزهو » (٣) .

٣ - العدالة في القول من مظاهر الإيمان

ومن هذا نعلم أن العدالة في القول — بكل ألوان القول — مظهر من مظاهر الإيمان لذلك حين أمر الله الناس أن يعدلوا في أداء الشهادة ناداهم بوصف الإيمان فقال : « يأبى الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » (٤) .

واعتبر الله من يتحرف في القول لا خلاق له ولا نصيب في الآخرة وله الويل والعذاب من الله .. فعن ابن أبي أوفى : أن رجلاً أقام سلعة في السوق خلف بالله لقد أعطيتني بها ما لم يعط - ليوقع فيها رجلاً من المسلمين - فزلت . « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم وهم عذاب أليم » (٥) .

(١) رواه مسلم . (٢) سورة الزخرف ٤٣ / ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) البزار . (٤) سورة النساء ٤ / ١٣٥ .

(٥) سورة آل عمران ٣ ، ٧٧ .

يل إن الإنسان ليمزح ويستهل الكذب في مزاحه حيث أن مجال اللهو لا حرج فيه .. ولكن الإسلام الذي أباح الترويح عن القلوب لا يجب أن تكون وسيلة ذلك الكذب فاعتبر من يفعل ذلك ناقص الإيمان قال رسول الله ﷺ . « لا يؤمن العبد بالإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمرء وإن كان صادقاً » (١) .

وتعده يالويل والهلاك فقال . « ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب ويل له . ويل له » (٢) .

وليس أدل على هذا من أن الله جعل المنافقين مخادعين لا إيمان لهم لأن ظاهرهم يخالف باطنهم فقال : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر !! وما هم بمؤمنون . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » (٣) .

وعد شهادتهم برسالة رسول الله زوراً وبهتاناً وكفراً لأنهم لم تصدر عن صدق ويقين فقال : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله !! والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون — ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » (٤) .

وكيف يكون كامل الإيمان هذا الذي أضل الناس عن الحق ?? قال تعالى : إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون (٥) . إنه يعيش خاوياً من الإيمان بعيداً عن قيمه وهداياته !!

إن الصدق في القول طريق الإيمان الصحيح والانحراف به سبيل إلى

(١) رواه أحمد . (٢) رواه الترمذى

(٣) سورة البقرة ٢ ٩٤٨ (٤) سورة المنافقون ١/٦٣ - ٣

(٥) سورة النحل ١٦/١٠٥

الفجور والخروج من دين الله : ذلك قال رسول الله ﷺ : عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (١) .

٤ - حب العدل الفائم على معرفة الله فرق حب ذوى القربى

إن المسلم حين يعدل في قوله إنما يثبت من قاعدة أصيلة تقوم على الاعتراف الكامل بالله رباً بيده النفع والضرر وهذه المعرفة سبيل لتحرير الإنسان من ضعف يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور العناصر والتكامل والامتداد إذ هو محدود الأجل وفي نصرتها وامتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداد أجله . وهو ضعيف وفي تقويتها تقوية لضعفه . ومن هنا كانت الخطورة وكان الانزلاق مع تيار الهوى النفسى حين يقف المرء موقف الشهادة لقرابته أو الشهادة عليهم . ولكن الإسلام يرتقى بالإنسان إلى درجة عالية ويربطه بالله وحده ويرتفع بحسه وشعوره إلى منزلة الحب الالهى الذى يطالبه بالعدل .

وهل هناك أعز على الانسان من نفسه ؟ نعم . أمر الله وحكمه وشريعته أعز عند المؤمنين من أنفسهم وأقرب الناس إليهم .

وهذا الشعور النبيل هو الذى يجعل المؤمنين لا يميلون مع الباطل فلا يغيرهم جاه غنى يطمعون فى ثرائه ولا ضعف فقير وعجزة فيعطون عليه — إن الاسلام يحمر صاحبه من كل هذا فالله أولى من كل هؤلاء وهو سبحانه أقرب للمؤمن من كل قريب يقول القرآن : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً » (٢) .

إنه الهوى والالتواء والإعراض عن الحق يجعل الإنسان يميل مع ضعفه فلا ينطق بكلمة الحق .. والله الخبير بكل ما يعمل هؤلاء لاشك يجازيهم بهذا الإنحراف .

والإسلام يرتفع بالمرء إلى قمة درجات العدالة حتى مع أعداء الله ومع من نكره من الناس قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا إن الله خبير بما تعملون » (١).

والمؤمن حين يرتفع عن الهوى فينطق بكلمة الحق إنما يطيع أمر ربه الذى يقول له : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً » (٢). ويقول له : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى » (٣).

٥ - الواقع الإسلامى يحقق العدالة الكاملة

هل رأيت عدالة مثل هذه العدالة ؟

لقد تحرر المرء فيها من كل شيء .. من خوفه وضعفه ونفسه ولم يبق له سوى هدف واحد : إرضاء ربه الذى خلقه .

وإذا كانت منظمات العالم تصدر القرارات حفاظاً على العدل فلا تعدو أن تكون حبراً على ورق وكلمات لا تجد لها أساساً من الواقع فان الإسلام صنع أجيالاً من البشر حققت هذه العدالة فى صورة لم تكن تحلم بها الدنيا وتكاد

(١) سورة المائدة ٨/٥

(٢) سورة النساء ٤ / ٥٨ .

(٣) سورة النحل ١٦ / ٩٠

تكون أسطورة زرددها في هذا الزمان وما هي إلا الحقيقة نقررها وننقلها دون
زيد أو التواء ..

ولا عجب في ذلك فروح هذا الدين حين تخالط فؤاد الإنسانية تجعل من
الرجل العادي البسيط قوة تقابل الظلم في معاقله وتصدح بالحق لا تخشى فيه
لومة لأثم - كما تخلق من الحاكم طاقة تغير الحياة فلا يأبه بمظهره ومنظره
ولا يأنف أن يسمع كلمة الحق من فرد مغمور في رعيته .. وإن هذه الروح
هي التي غمرت وجدان المجاهدين ومن ورائهم أمة استولى على قلب رجالها
ونسائها حب الله وإعلاء كلمته فانطلقت هذه الأمة تضرب بمعاولها صروح
الظلم في كل مكان من العالم فتهاوى هذه الصروح في ضعف واستكانة تحت
أقدام المجاهدين .

وإنها لصراحة الحق والعدل في القول هي التي جعلت أبا بكر عقب انتهاء
البيعة له بسقيفة بني ساعدة يقول :

أيها الناس : إني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني
وإن أسأت فقوموني . . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى
عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله . . والقوى فيكم ضعيف عندي حتى
أخذ الحق منه إن شاء الله . . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله
بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله
ورسوله فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . .

وإنها للعدالة الحققة من الواقع الإسلامي نامسها في عمر بن الخطاب وقد
ذهب بعض المسلمين إلى ابنته حفصة أم المؤمنين فقالوا لها : أباي عمر إلا شدة
على نفسه وحصرها وقد بسط الله في الرزق فليسط في هذا النبي فيما شاء منه
وهو في حل من جماعة المسلمين . فلما كلمته حفصة في ذلك كان جوابه .
ياحفصة بنت عمر نصحت قومك وغششت إباك إنما حق أهلي في نفسي ومالي
فاما في ديني وأمانتي فلا .

ونالساها في علي بن أبي طالب حين نسمع عقبة بن علقمة يقول : « دخلت علي علي عليه السلام - فاذا بين يديه لبن حامض أذني حموضته وكسر يابسه فقلت : يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا وأشار إلى ثيابه فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألقى به .

وحين يروى هارون بن عنترة عن أبيه قال : « دخلت علي علي بالخورتق وهو فصل شتاء - وعليه خاق قطيفة وهو يرعد فيه فقلت : يا أمير المؤمنين : إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال : والله ما أرزؤكم شيئاً وما هي إلا قطيفتي أخرجتها من المدينة .

كما تجد هذا التطبيق العملي لهذه الوصية الخالدة في علي - أيضاً - « وقد وجد درعه عند نصراني فأقبل به إلى شريح قاضيه يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه وقال : إنها درعي ولم أبع ولم أهب . فسأل شريح للنصراني : ماتقول فيما يقول أمير المؤمنين ، قال النصراني ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب فالتفت إلى علي يسأله يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك علي وقال : أصاب شريح . مالي بينه . فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه . إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه !! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين . اتعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق !! فقال علي : أما إذا أسلمت فهي لك !! (١)

والتاريخ الإسلامي يشهد أمثلة كثيرة لهذا التطبيق العملي . . إذ ليس

الإسلام قوانين تذكّر في المناسبات أو مبادئ كمبادئ المنظمات العالمية لا واقع لها في حياة الناس إنما هو العدالة التي شهدها العالم كله لأنها قائمة على قاعدة متينة من وحدانية الله والاعتراف بربوبيته فذلك هو الركيزة الأولى : ألا تشركو به شيئاً وعليها قامت هذه الوصية الخالدة :

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

الوصية التاسعة :

قوله تعالى :

وبعهد الله أوفوا .. ذلکم وصاکم به لعلکم تذكرون

* * *

- ١ — ماذا يقصد بعهد الله ؟
- ٢ — بواعث الوفاء بالعهد كما يراها الإسلام ؟
- ٣ — الأنصار خير أمثلة للوفاء بالعهد ؟
- ٤ — آيات من كتاب الله تحث على الوفاء بالعهد ؟
- ٥ — الوفاء بالعهد مع الكافرين ؟
- ٦ — العهود التي يجب الوفاء بها ؟
- ٧ — تذكر الإنسان لماضيته من الوفاء بالعهد ؟

١ - ماذا يقصد بعهد الله

عهد الله : ما وصى به — سبحانه — في كتابه وعلى لسان رسوله والالتزام
الفطر السليمة بهذه الوصايا وتلك التعاليم .. فكأن هناك عهداً بين الله وخلقه
يجب الوفاء به .

قال ابن جرير في ذلك : « وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا . وإيفاء
ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنة رسوله وذلك هو
الوفاء بعهد الله (١) » .

ويري أبو السعود : أن المراد بعهد الله : « ما عهد إليكم من الأمور
المعدودة أو أى عهد كان فيدخل فيه ما ذكر دخولا أولاً .. أو ما عاهدتم الله
عليه من الأيمان والنذور (٢) » .

والعهود التي يجب الوفاء بها درجات :

فأعلاها منزلة هو عهد الله الأزلى الذى أخذه على بنى آدم ألا يستجيبوا
للشيطان وأن يتبعوا المرسلين . قال تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا
تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم (٣) » .

وهو يشير إلى هذا العهد الذى أخذه — سبحانه — على آدم — عليه
السلام — بعد أن اتضح عداوة ابليس له وهبط هو وحواء من الجنة وقد
صدر هذا الأمر الإلهي عهداً وموثقاً من الله : « قال اهبطا منها جميعاً . بعضكم
لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن

(١) تفسير ابن جرير ج ٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣) سورة يس ٣٦ / ٦٠ ، ٦١ .

أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١) .

فان لم يكن هناك رسل فالفطرة السليمة تستجيب دائماً لهذا العهد بما أودع الله فيها من استعداد للنظر والتفكير والتأمل والوصول إلى الحق عن طريق ذلك . وهذا ما جاءت به آيات الأعراف : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى .. شهدنا .. أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك تفصل الآيات ولعلمهم يرجعون (٢) » .

ومع هذا فقد جرت حكمة الله ورحمته بخلقه ألا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا . قال تعالى : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (٣) » .

فالرسول يذكر الفطرة هذا العهد فتستجيب له إن لم يصبها مرض الانحراف عن الحق فتحجب عن نور هذه الحقيقة .

وبلى هذا العهد ما أخذه رسول الله ﷺ — على أصحابه وأمته من عهود ومواثيق وهو يشمل كل ما أتى به وحي الله ودلت عليه شريعته ..

ومن أحق الشروط بالوفاء ما تعلق بكيان الأسرة .. لذلك أولى الإسلام عقد الزواج مزيداً من الرعاية فقال رسول الله ﷺ : « إن أحق ما وقيتم به من الشروط ما استحلتتم به الفروج (٤) » .

فلا يجوز لرجل تزوج امرأة أن يستخف بالرباط والعهد الذي التزم به

(١) سورة طه ٢٠ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) سورة الأعراف ٧ / ١٧٢ — ١٧٤ .

(٣) سورة الاسراء ١٧ / ١٥ . (٤) متفق عليه .

وإلا فالويل له حين يلقي الله . يقول الرسول عليه السلام : « أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقاً خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان .. وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حقه وخدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقي الله وهو سارق (١) .

والعهود التي يعطيها الإنسان في معاملاته مع الناس يلزم الوفاء بها فذلك أساس الثقة في أى تعامل وفي الحديث : « المسلمون عند شروطهم (٢) » .

لكن مع مراعاة اتفاق هذه العقود مع حدود الشريعة وإلا فلا يكاف المسلم باحترام هذه العقود .

وربما كان أخطر مافي المعاملات مافيها من استدانة . والدين التزام وعهد في الوفاء به برهان صادق على حسن إسلام المرء .. وقد اهتم الإسلام بهذا كل الاهتمام فطالب بكتابة الدين قلّ أو كثر إلى أجله كما اشترط أن يكون الكاتب عدلاً حتى لا يزور وأن يُعَمِّي المدين حتى يكون ذلك إقراراً منه بالدين ولا بد من شاهدين وإلا فرجل وامرأتان . وعلى الشهداء أداء الشهادة فهي أمانة يلزم أداؤها .. وأعطى للدين كل الضمانات : فقرر الرهن مقابل الدين . قال تعالى موضحاً كل ذلك : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله .. فليكتب وليلل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فان كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا مادعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا

إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها
وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم
واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ، وإن كنتم على سفر ولم تجدوا
كاتباً فوهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمأنته وليتق
الله ربه ولا تكتبوا الشهادة وعن يكتبها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون
عليم » (١) .

وفوق هذه الضمانات فقد رسم الإسلام للمؤمن خطأ لا يتعداه وخوف
وحذر من المماطلة أو أكل الدين بالباطل فقال الرسول في ذلك : « من
أخذ أموال الناس يريد أداها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها
أتلفه الله » (٢) .

بل إن أعظم القربات عند الله لا تكفر هذه الخيانة فعن أبي قتادة رضی
الله عنه قال : « قال رجل يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر
عني خطاياي ؟ فقال رسول الله : نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير
مدبر .. ثم قال : كيف قلت ؟ فأعاد .. قال : نعم إلا الدين فإن جبريل أخبرني
بذلك » (٣) .

والإسلام يحرم الاستدانة إلا لعذر واضطرار وإلا فهو القصاص العادل
منه يوم القيامة .. فعن رسول الله ﷺ : « إن الدين يقتص من صاحبه يوم
القيامة إذا مات إلا من تدين في ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته في سبيل
الله يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم فلا يجد ما يكفنه
ويواريه إلا بدين ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه فإن الله
يقضي عن هؤلاء يوم القيامة » (٤) :

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٨٢ ، ٢٨٣ . (٢) البخارى .

(٣) مسلم . (٤) ابن ماجه .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال : « يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقال : يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أنني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم ألبس ولم أضيع ولكن أتى على إما حرق وإما سرق وإما وضيعه . . فيقول الله : صدق عبدى . . أنا أحق من قضى عنه فيدعو الله بشيء فيضمه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل الله » (١) .

أرأيت كيف يجب الوفاء بالعهود عامة وبهذا النوع خاصة وأنه لا يجوز أن تكون الديون لشهوة طارئة ولذة عاجلة . . أما من استهانوا بدينهم واقترضوا الديون الكثيرة من أهل الكفر والضلال يهوداً ونصارى وغيرهم ، واقترضوها بالربا فحرت عليهم البلاء مصداقاً لقول الحق سبحانه : « يمجى الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » (٢) .

وتنفيذاً لوعيده حيث قال : « يأياها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » (٣) . أمثال هؤلاء بهيدون عن روح الإسلام ونصه كما نطق بذلك القرآن في كثير من آياته .

٢ - بواعث الوفاء بالعهد كما يراها الإسلام

والوفاء بالعهد يرجع إلى عاملين أساسيين يلخصهما قول الله تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » (٤) .

فالتذكر والعزيمة القوية هما أساس الوفاء بكل عهد .

(١) أحمد . (٢) سورة البقرة ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٤) سورة طه ٢٠ / ١١٤ .

ومن طبيعة الإنسان أن ينسى.. هكذا خلقه الله لحكمة أرادها ولا بد له من
مذكر دائماً لذلك قال الله لرسوله : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (١).

وكثير من أوامر القرآن ونواهيه وتوجيهاته يتبعها الله بأنها للتذكرة
ولقوم يذكرون فيقول : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى
وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (٢).

وفي مطلع سورة النور : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات
بينات لعلكم تذكرون » (٣).

ويقول في سورة الرعد : « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن
هو أعمى ؟ إنما يتذكرون أولو الألباب » (٤).

وفي سورة الزمر : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم
يتذكرون » (٥).

إلى غير ذلك من الآيات . ومن هنا أتبع الله أمره بالوفاء بالعهود بقوله :
« ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » .

ودائماً يوجه المؤمنين إلى إدامة الذكر دفعاً للغفلة والنسيان فيقول :
« يأياها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً » (٦).

ويقول : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله
واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (٧).

(١) سورة الذاريات ٥١ / ٥٥ . (٢) سورة النحل ١٦ / ٩٠ .

(٣) سورة النور ٢٤ / ١ . (٤) سورة الرعد ١٣ / ١٩ .

(٥) سورة الزمر ٣٩ / ٢٧ . (٦) سورة الأحزاب ٣٣ / ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

(٧) سورة الجمعة ٦٢ / ١٠ .

ويجعل سر التقوى في التذكر الذي ينجي المتقين من وساوس الشيطان فيقول : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » (١)

وبها نأمن عن الغفلة التي يسوق إليها حب المال والولد فيقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » (٢)

والعزيمة القوية لا تعرف التردد في وفائها بعهدتها فهي تتحمل في سبيل تنفيذها كل صعب وعسير ولو كلفها ذات نفسها وأساس هذه العزيمة إيمان كامل بوعده الله وإخلاص يسيطر على الأرواح فهون التضحيات وترخص الدماء ولقد كان رسول الله ﷺ يأتيه الرجل أو الوفد من الناس فيبايعهم على أمور تتناسب مع أمراضهم وعلاجها فلا يعرف الواحد منهم غير الوفاء الكامل بعهدته مع رسول الله :

عن عوف بن مالك قال : كنا عند النبي تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : نبايعك يا رسول الله قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية قال : ولا تسألوا الناس شيئاً . قال عوف بن مالك فلقد رأيت بعض أولئك النفس يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه (٣) » وإنما لدقة الوفاء بعهد رسول الله هي التي جعلت هذا النفس يحرص على تنفيذ هذه البيعة .

وما أحرانا أن نتعلم الوفاء للإسلام من هؤلاء فهو عهد وأمانة ألقاها بين أيدينا سوف نسأل عنها أمام الله .

(٢) سورة المنافقون ٩/٦٣

(١) سورة الأعراف ٢٠١/٧

(٣) مسلم .

٣- الأنصار خير امثلة للوفاء بالعهد

وهل رأيت أعظم وفاء من أنصار رسول الله الذين امتدحهم ربهم فقال :
« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون
في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة
ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١) » .

ولقد بقي عهدهم الذي قطعوه على أنفسهم في بيعة العقبة دليلاً على معدنهم
النقي ورجولتهم وإيمانهم وكان التزامهم الوفاء بهذا العهد ومحبتهم لهذا الدين
من الأسباب التي جعلتهم يقدمون دماءهم في غزوة بدر وما تلاها من غزوات
الرسول عليه السلام . وعلى هذا الموثق كان الرسول يعتمد في المهمات :

فمن أنس قال : « لما كان يوم حنين أقبلت هوزان وغطفان وغيرهم
بذرايرهم ونعمهم ومع رسول الله يومئذ عشرة آلاف ومعهم الطلقاء فأدبروا
عنه حتى بقي وحده فنادى يومئذ نداءً ين يخلط بينهما شيئاً : التفت عنه يمينه
فقال : يا معشر الأنصار فقالوا : لبيك يا رسول الله نحن معك أبشر . ثم التفت
عن يساره فقال : يا معشر الأنصار فقالوا : لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك
وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال : أنا عبد الله ورسوله فأنهزم المشركون وأصاب
غنائم كثيرة فقسمها بين المهاجرين والطلقاء ولم يعط منها الأنصار شيئاً فقالوا :
إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطى الغنائم غيرنا ؟ فبلغه ذلك فجمعهم وقال :
يا معشر الأنصار ما شيء بلغني عنكم ؟ فسكتوا !! فقال : يا معشر الأنصار
أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون بجمحمد ﷺ — تحوزونه
إلى بيوتكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله رضينا فقال رسول الله : لو سلك الناس
وادياً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » (٢) .

وهم من أول يوم دخلوا فيه هذا الدين أمثلة حية للوفاء بعهودهم بل إنهم

زادوا على ما قطعوه على أنفسهم من حماية الدعوة داخل المدينة والدفاع عن رسول الله ضد أي خطر . . فعندما خرج للقاء غير أبي سفيان وأفلتت منه واضطر إلى القتال ووقف يستشير أصحابه فيما يفعل وقام المقداد بن عمرو — وهو من المهاجرين — فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله فنجن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . . عند ذلك كان ﷺ يريد رأى الأنصار الذين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم فقال : أشيروا على أيها الناس . . وإنما يريد الأنصار فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . . قال : أجل ! قال : قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنجن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

وهكذا يكون الوفاء بالعهود . وهكذا تكون الرجولة والإيمان الصادق لقد أبلى الأنصار — حقاً — أحسن البلاء وضحوا بأرواحهم وأموالهم في سبيل الله وضربوا في ذلك أروع الأمثال : روى أنس بن مالك قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله : غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع . فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني اعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعني أصحابه — وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء — يعني المشركين — ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ : الجنة ورب النضر إني لأجدر يحميها من دون أحد . .

قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ثم تقدم قال أنس : فوجدنا

به بضعا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم ووجدناه وقد مثل به المشركون فما عرفته إلا أخته بشامة أو بينانه .

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : « من المؤمنين رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا^(١) .

والواقع أن كل دعوة ترنو إلى النجاح إلى أمثال هؤلاء الذين ضحوا بالدنيا كلها فكان لهم عز الدنيا والآخرة ورضى الله عنهم أجمعين .

٤ - آيات من كتاب الله تحث على الوفاء بالعهد

وإنما وفي الأنصار وأصحاب رسول الله - عليه السلام - بعدهم لأن شعور الإيمان بتنفيذ أمر الله أصبح مطلبهم كما هو مطلب كل من سار على دربهم فقد توالى آيات القرآن تحث على الوفاء بعهد الله وتخوف وتحذر من العذر قال تعالى : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً^(٢) .

وقال سبحانه : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تعملون^(٣) .

وبين جل جلاله أن الوفاء بالعهد صفة الصادقين البررة فقال في آية البر : « والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون^(٤) . ومن أوصاف أصحاب العقول

(١) رواه البخارى . والآية من سورة الأحزاب ٣٣/٢٣ .

(٢) سورة الإسراء ١٧/٣٤ .

(٣) سورة النحل ١٦/٩١ .

(٤) سورة البقرة ٢/١٧٧ .

الراجعة الوفاء بعهد الله قال تعالى : إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (١) .

وقال في أوصاف المؤمنين : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٢) .

كما أن الغدر ونقض العهد دليل سخط الله والبعد عن رحاب الإيمان قال تعالى : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار (٣) . وبين القرآن أن نقض العهد ضعف وضياع وفقدان للثقة فقال بعد الأمر بالوفاء بالعهد : « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون (٤) .

والإسلام لا يعرف وسيلة لنقض العهد ولو كانت الدنيا بأسرها فانها عرض زائل ومتاع قليل .. ومن الناس من يشتري متعة زائلة بنقضه لعهد الله وهذه زلة تقضى على الأمم كما تهلك الأفراد ولذلك تتوالى الآيات في سورة النحل لتبين هذه الحقيقة فتقول : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فقول قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعملون ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٥) .

ويوضح سبحانه صفة أهل الكتاب في أسلوب عام يتناول كل من اتبع طريقهم فيقول : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك

(١) (٣) سورة الرعد ١٣/٢٥٤٢٠

(٢) سورة المؤمنون ٢٣/٨٠، وسورة المعارج ٧٠/٣٢ .

(٣) (٤) سورة النحل ١٦/٩٢، ٩٤، ٩٥ .

لاخلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينتظر إليهم يوم القيامة ولا يذكهم
ولهم عذاب أليم» (١).

ويحدثنا القرآن عن سر إهلاك القرى فيقول : « وما وجدنا لأكثرهم من
عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » (٢).

ويبين سبحانه مدى قيمة ما يلتزم به الإنسان تجاه ربه وذلك وهو يحدثنا
عن بيعة الحديبية في أسلوب يحمل الوعد والوعيد فيقول : « إن الذين يبايعونك
إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى
بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

ويقول : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في
قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (٣).

وهكذا نرى كثيراً من آيات الكتاب تحث على الوفاء بعهد الله وتحذر من
نقضه مما جعل الصالحين على توالي الأزمان يعرفون قيمة الوفاء وكيف يوفون
بعهودهم تاركين أهل الغدر والخيانة لغدرهم وخيانتهم لهم اللعنة ولهم
سوء الدار .

هـ - الوفاء بالعهد مع الكافرين

وكيف ينقض مؤمن عهده . . وإسلامه يجعل الوفاء بالعهد واجباً لأمم
المؤمنين فحسب بل مع الكافرين المسلمين الذين لهم ذمة الله ورسوله ماداموا
عند عهودهم . يقول القرآن : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند

(١) سورة آل عمران ٣ / ٧٧ .

(٢) سورة الأعراف ٧ / ١٠٢ .

(٣) سورة الفتح ٤٨ / ١٠ / ١٨٤ .

رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم
إن الله يحب المتقين» (١).

ويقول الرسول عليه السلام: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته
فأنا حجيجه» (٢).

وقال: «أبما رجل أمن رجلا على دمه ثم قتله فأنا من القاتل برئء وإن
كان المقتول كافراً» (٣).

فاذا ما نكث هذا الكافر عهده فالإسلام يعرف دواؤه . . إنه القضاء على
ره وس الضلال قال تعالى: «وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في
دينكم فقاتلوا أمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . . ألا تقاتلون قوما
نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة؟» (٤).

إنها قتال هؤلاء حتى يستسلموا لحكم الإسلام: «قاتلوا الذين لا يؤمنون
بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق
من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» (٥).

فهو — إذن — قتال أمة الكفر من المشركين ومن لا يحرمون ما حرم
الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ماداموا قد نقضوا
عهدهم مع جماعة المسلمين.

وإنها الروعة الوفاء الذي جاء به هذا الدين حين اعتبر المشركين القاصدين
بيت الله الحرام أصحاب شعائر تحترم وأنهم ينتفون فضلا من الله ورضوانا
وأن عداوة أهل مكة للمسلمين ليست مسوغا للاعتداء يقول الله تعالى:

(١) سورة التوبة ٩ / ٧ .

(٢) رواه أبو داود . (٣) ابن حبان .

(٤ ، ٥) سورة التوبة ٩ / ١٢ ، ١٣ ، ٢٩ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرُ مِنْكُمْ شَيْءٌ أَنْ صَدُّوا عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (١).

فلما واصل المشركون حربهم لدعوة الإسلام ولم يحترموا أى عهد أو جوار قال الله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ». وقال: « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » (٢).

والإسلام يصل إلى منزله سامية حين يوجه رسول الله إلى إعلان من تقضوا عهودهم بغزوه على معاملتهم بالمثل فلا يجوز أن يباغتهم قبل هذا الاعلان فقال: « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » (٣).

والرسول — عليه السلام — يقول مؤكداً هذا الأمر: « من كان بينه وبين قوم عهداً فلا يلحن لهم عهداً ولا يشدنه حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء » (٤).

وقد سبق حديث رسول الله ﷺ في الوصية الخامسة الذى رواه الشيخان والترمذى عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: « من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً ».

ولقد ذهب أبو حنيفة على ما هو المشهور إلى الأخذ بمبدأ القصاص بالنسبة للمعاهد والذمى وأفتى بقتل المسلم إذا قتل معاهداً أو ذمياً.

(١) سورة المائدة ٥ / ٢

(٢) سورة التوبة ٩ / ٢٨ ، ٣٦ .

(٣) سورة الأتقال ٨ / ٥٨ .

(٤) رواه الترمذى وأبو داود.

٦ - العهود التي يجب الوفاء بها

هل كل عهد يجب الوفاء به ؟ ربما أعطى بعض الناس عهداً أن يفعل ذنباً من الذنوب ويدفعه كبره وتعاميه عن الحق إلى الوفاء بعده وكأن هذا من مميزات الرجولة وعنوان الشهامة .

والإسلام لا يعرف عهداً في معصية فإن الإسلام خير محض وحب للحق وحده والعهد في ذلك كاليمين ، فاليمين موثق يلتزم المرء بأدائه وقد قال رسول الله ﷺ « من حلف على عین فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير (١) .

فاذا أصر على كبره ونفذ ما اعترم عليه من المعصية فقد استجلب سخط الله وغضبه ففي الحديث : « لأن يبلج (٢) أحدكم يمينه في أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطى كفارته التي افترض الله عليه (٣) .

فاذا ما كان العهد في معروف فليشحن همته وليستجمع عزيمته في إتمام هذا العهد حتى ينال رضى الله ومثوبته .

٧ - تذکر الانسان لماضيه من الوفاء بالعهد

كثير من الناس تقتر همهم وتفرغ المظاهر الخادعة فينسون ماضيهم أو يتناسونه — وهم كمن يصر على تنفيذ معصية كلاهما من نوع مريض مفتون بحب المظهر . فإضى الإنسان قطعة من وجوده لا بد من الاعتراف به على حقيقته والوفاء لهذا العمر المنقضى .

(١) رواه مسلم .

(٢) يبلج : يتمادى فيه ولا يكفر .

(٣) البخاري .

والذين يفتنهم الله بعد فقر فيتنكرون لأيام خلت من حياتهم ويقطعون
حبال العهد ويحيون في وهم وضلال هؤلاء يلقون جزاء جحودهم وإنكارهم .

وهم صورة تتكرر في كل زمان ومكان نلسمها في حياتنا المعاصرة وفي
تاريخ الأمم السابقة :

يروى أبو هريرة رضى عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إن ثلاثة من بني
إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث ملكا فأتى الأبرص
فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى
الذى قدرنى الناس فمسحه فذهب عنه قدره وأعطى لونا حسناً وجلداً حسناً .
قال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل فأعطاه ناقة عشرة وقال : بارك الله
لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن
ويذهب عنى هذا الذى قد قدرنى الناس فمسحه فذهب عنه وأعطى شعراً
حسناً .. قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر فأعطى بقرة حاملا وقال :
بارك الله لك فيها . ثم أتى الأعمى فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : أن
يرد الله على بصرى فمسحه فرد الله عليه بصره قال : فأى المال أحب إليك ؟
قال : الغنم .. فأعطى شاة والدأ « حاملا » فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا
واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم . ثم إنه أتى الأبرص
فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى
ولا يلوغ لى اليوم إلا بالله . ثم بك .. أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد
الحسن بعيراً أتبلغ به فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة !! فقال : كأتى
أعرفك ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت
هذا المال كإبراً عن كإبر !! فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .
وأتى الأقرع فى صورته فقال له مثل ذلك ورد عليه مثلما رد الأول فقال :
إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .. ثم أتى الأعمى فى صورته وهيئته
فقال له مثلما قال . فقال : قد كنت أعمى فرد الله على بصرى فخذ ما شئت
ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم لشيء أخذته لله !! فقال : أمسك مالك

فإنما ابتليتم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك» (١).

أرأيت كيف كانت خيانة الماضي نقضاً للعهد وتنكراً للأيام؟ وكيف كان جزاء الله لمن غدر ولمن وفي؟

وتاريخ الصحابة يشهد حادثة من هذا النوع لرجل يدعى ثعلبة كان فقيراً يتمنى أن يغنيه الله فقال لرسول الله ﷺ: أدع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه!! ثم سأل رسول الله مرة أخرى فقال عليه السلام: أما ترضي أن تكون مثل نبي الله فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً أسارت. قال: والذي بعثك بالحق إن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالا. فأتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمي الدود فضاعت عليه المدينة فتتحنى عنها فزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت فتتحنى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ودمى تنمى كما تنمى الدود حتى ترك الجمعة فطلق الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار.. فقال رسول الله ﷺ: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ غنماً فضاعت عليه المدينة.. فأخبروه بأمره فقال: يا ويح ثعلبة.. يا ويح ثعلبة.. يا ويح ثعلبة.. وأنزل الله جل ثناؤه: خذ من أموالهم صدقة.. الآية ونزلت فرائض الصدقة وبعث الرسول عليه السلام من يقبض من ثعلبة زكاة ماله. فقال: ما هذه إلا جزية انطلقا حتى أرى رأبي وحينئذ نزل قول الله سبحانه: «ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب» (٢).

(١) البخارى .

(٢) سورة التوبة ٩ / ٧٥ — ٧٨ .

ورجع هذا المنافق ليتظاهر باعطاء الزكاة فرفض الرسول أن يأخذها منه كما رفضها أبو بكر وعمر وعثمان .. وهلك ثعلبة جزاء ما أخلف وعده مع الله (١).

إن الوفاء بالعهد ركن تقام عليه حياة المسلم وتشاد عليه أمة الإسلام وما أحوجنا إلى التذكير المستمر حتى نوفي بكل ما أخذه الله علينا من عهود . وما أحوجنا أن نتذكر هذه الوصية الخالدة الجامعة :

« وبعهد الله أوفوا .. ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » .

الوصية العاشرة :

قوله تعالى :

« وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

- ١ - اللغة والإعراب والمعنى العام للآية .
- ٢ - الصراط المستقيم . . ما هو ؟
- ٣ - الصراط المستقيم كما جاء في القرآن والسنة .
- ٤ - كيف يصل الإنسان إلى الإستقامة ؟
- ٥ - سبل الشيطان طريق الضلال .

١ - اللغة . . والاعراب . . والمعنى العام للآية

الصراط والسراط والزراط : الطريق ، « وقد قرأ ابن عامر : سراط بالسين . وحمة : بين الصاد والزاي والباقون بالصاد صافية وكلها لغات^(١) .

والإستقامة : في وضعها ضد الاعوجاج والاستواء في جهة الانتصاب يقال استقام العود أو العمود : إذ اعتدل والسبل جمع سبيل وهو الطريق .

وتفرق : أصلها تتفرق : أي تفرقكم أيادي سبأ^(٢) .

وأن هذا صراطي : « قرئت بتشديد النون وإسكانها مع فتح الهمزة ، وتشديد النون مع كسر الهمزة :

فعلى تشديد النون وفتح الهمزة هي في موضع نصب . أي : وائل أن هذا صراطي قال الفراء : ويجوز أن يكون خفضا أي وصاكم به وبأن هذا صراطي ، وتقديرها عند الخليل وسيبويه : ولأن هذا صراطي كما قال : وأن المساجد لله . والمخففة مثل المشددة إلا أن فيه ضمير القصة والشأن أي : وأنه هذا . . فهي في موضع رفع ويجوز النصب ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد كما قال عز وجل : « فلما أن جاء البشير » أما على الكسر : فهي على الاستئناف أي الذي ذكر في هذه الآيات : صراطي مستقيما^(٣) .

« مستقيما » حال مؤكدة من صراطي . . والعامل فيها اسم الإشارة .

« وتفرق » منصوب باضمار أن بعد الفاء في جواب النهي .

(١) مفاتيح الغيب ج ١٤ ص ٢

(٢) الكشاف : للزمخشري ج ١ ص ٥٣٥ .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ٧ ص ١٣٢ .

و « بكم » يجوز أن يكون مفعولا به في المعنى أى فتفرقكم ، ويجوز أن يكون حالا أى وأنتم فيها^(١) .

يقول أبو السعود : « الباء في « بكم » للتعدية أى : فتفرقكم حسب تفرقها أيادى سبأ فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم كما قيل من أن « ذهب به » فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من « أذهب »^(٢) .

« ذلكم : » إشارة إلى ما مر من اتباع دينه وترك غيره من الأديان^(٣) .

والمعنى :

هذا الذى تلوته عليكم وأوضحته لكم عن طريق الوحي الإلهى وليس ظنا ولا وها ولا هوى ، وما أثبتته لكم من دلائل الوجدانية والربوبية وما بينته من بطلان عاداتكم وتقاليدهم التى تخالف ما أمر به الله فأضرت بكم وبمجتمعكم هذا كله هو طريقى .. وهو طريق الله معتدلا لا اعوجاج فيه فيجب عليكم أن تتبعوه ولا تسيروا وراء شهواتكم وشياطينكم فتنفروا في كل طريق وتضلوا في شعاب الحياة ولا تصلوا إلى غاية أو هدف ويحيا أفرادكم ومجتمعاتكم في شقاء مصدره بعدكم عن الحق وعدم خوفكم من الله .. والله قد وصاكم باتباع ذلك كله ليربى فيكم الإحساس المرهف والصلة الوثيقة به والمعرفة الحقبة بقدره فتصلوا إلى مرتبة التقوى وهى أساس كل خير وصلاح .

(١) الفتوحات الإلهية : للجمل ج٢ ص ١١٠

(٢) أبو السعود ج٢ ص ١٤٧ .

(٣) القرطبي ج٧ ص ١٣٨ .

٢ - الصراط المستقيم : ما هو ؟

الصراط المستقيم : هو طريق الحق ، وقيل : ملة الإسلام . وقيل : إنه النبي - ﷺ - وصاحبه . وقد عرض هذا الرأي على الحسن رضي الله عنه فوافقه وصدقه وأثنى على قائله ، وكلها آراء متقاربة : فمن أحب النبي وصاحبيه واتبع سنتهما كان متبعا لكتاب الله ، وكتاب الله هو : ملة الإسلام ودستوره الخالد ، والإسلام : هو طريق الحق وما سواه طرق الباطل والضلال .

ولكن وضع الآية هنا في ختام الوصايا وفي أواخر السورة يجعلنا نتساءل عن سر ذلك فعلنا نستشف بعض معاني الصراط المستقيم . وهو قريب إلينا حبيب إلى نفوسنا ميسر لكل من أراده كما نفهم ذلك من الإشارة إلى الصراط بكلمة « هذا » وهي إشارة للقريب .

لقد تحدثت سورة الأنعام - كما سبق - عن حقيقة الإله العظيم وقدرته وعلمه ونزاهه عن كل وصف ذميم . وردت أمر الكون كله إليه وأثبتت أنه الحاكم والحكم إليه وحده في كل شأن من شؤون الحياة وأن ما اصطنعتة المجتمعات الجاهلية من عادات في الأموال والأولاد والنار والأنعام : أوهام زائفة ليس لها فيها من دليل عقلي أو نقلي ، فالحياة لله فيجب أن تخلص له وحده وأن تحمل عنوان الإسلام والاستسلام لمن أنشأها وخلقها - وبعد أن تصل السورة في جولاتها إلى تتبع مواطن كل داء لتصف له الدواء تنادي المجتمع الانساني . تنادي الخلق - في رفق - للاستماع إلي واهب الحياة والخير بخباياها وأسرارها والذي يعلم ما يصلحها . تناديهم لتربيتهم بهذه الوصايا الخالدة وتعرفهم كيف تكون عبادة الله وحده لا شريك له وكيف تنشأ الأسرة الصالحة وكيف ينتشر الأيمان في أرجاء الأرض وكيف يعامل اليتيم وتضان الحقوق وتقوم المعاملات على الصدق والثقة وكيف يلزم الانسان بعهد الله فيطبع على الوفاء .

وبعد هذه الحملة الضخمة على الشرك وأوهامه وبيان الطريق الواضح المستقيم للحياة المستقرة الآمنة هنا يعرض القرآن الكريم هذا الصراط ويرشد إلى اتباعه حتى لا تنزل إذا ما استجبنا لداعى الشيطان فيقول: وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سيده .

إنه إذن : ما حملت هذه السورة من معان وما ألقاه الله من وصايا . وهل الإسلام غير التوحيد النقي الذى لا تشوبه شائبة الشرك وما يبنى على هذا الاعتقاد من آداب خلقية وتشريعات إلهية وتنظيم مجرى الحياة الدافق لينطلق باسم الله وعلى بركته . فهذا هو الصراط المستقيم ، وهذا هو الإسلام كما أراده الله .

يقول أبو السعود : وأن هذا صراطى : إشارة إلى ما ذكر في الآيتين من الأمر والنهي .. قاله مقاتل ، وقيل : إلى ما ذكر في السورة فإنها بأسرها فى إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة (١) .

٣ - الصراط المستقيم كما جاء فى القرآن والسنة ؟

القرآن مورد كل ظامى وسند كل قول وإمام كل حجة فلتتجول فى رياضه بحثاً عن مدلول الصراط المستقيم عنى الله أن يهديننا إليه ويدلنا عليه .

ولقد وردت كلمة « الصراط » فى القرآن ٤٥ مرة .. معرفة ونكرة ، كما جاءت مادة « الاستقامة » ٤٧ مرة وكلا اللفظين يلقيان أضواء كاشفة على ما يتمناه كل مسلم من الهداية التى يطلبها دائماً إلى الصراط المستقيم .

فالصراط المستقيم اعتراف برؤية الله وحده ، وعبودية مخلصه له سبحانه

(١) أبو السعود ج ٢ ص ١٥٠ .

كما ورد في دعوة عيسى لقومه : « إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (١) .

وهو اعتصام بالله وركون إليه والتجاء إلى حماه ونبد لما عداه وذلك بالتمسك بكتابه والعمل بسنة رسوله قال تعالى : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » (٢) .

وقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا » (٣) .

والصراط المستقيم غاية القرآن ووظيفة الرسول عليه السلام . قال تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » (٤) .

وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كَبُونَ » (٥) .

وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » (٦) .

ولم لا يدعو إليه محمد ﷺ والله عز وجل على هذا الصراط ؟ هكذا قال هود لقومه : « إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٧) .

(١) سورة آل عمران ٣ / ٥١ . (٢) سورة آل عمران ٣ / ١٠١ .

(٣) سورة النساء ٤ / ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٤) سورة إبراهيم ١٤ / ٣٤ . (٥) سورة المؤمنون ٢٣ / ٧٣ ، ٧٤ .

(٦) سورة الشورى ٤٢ / ٥٢ ، ٥٣ . (٧) سورة هود ١١ / ٥٦ .

وقال سبحانه : « هذا صراط على مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » (١).

وإبراهيم أبو الأنبياء مهدي إلى هذا الطريق قال تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراط مستقيم » (٢).

وموسى وهارون يقول فيهما المولى سبحانه : « وأتيناها الكتاب المستبين وهديناها الصراط المستقيم » (٣).

والأنبياء جميعاً يقول فيهم القرآن : « واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم » (٤).

ورسولنا العظيم على هذا الطريق سائر : قال تعالى « يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » (٥).

ولهذا أمره ربه أن يثبت على طريقه لأنه طريق الحق وما عداه طرق الضلال فقال له : « فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم » (٦).

وأن يعلن ذلك فى وجه كل مكابر : « قل إننى هدانى ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيميا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (٧).

(١) سورة الحجر ١٥ / ٤٢٤

(٢) سورة النحل ١٦ / ١٢١

(٣) سورة الصافات ٣٧ / ١١٨

(٤) سورة الأنعام ٦ / ٨٧ . (٥) سورة يس ٣٦ / ١ - ٤

(٦) سورة الزخرف ٤٣ / ٤٣

(٧) سورة الأنعام ٦ / ١٦٢

والهداية إلى هذا الصراط فضل راجع إلى مشيئة الله . قال تعالى : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » (١).

وقال : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » (٢).

ولكن هذه الهداية — مع أنها تفضل راجع إلى مشيئته — هي أيضاً منحة يمنحها سبحانه للمتعرضين لها المتوجهين إلى مصدرها السائرين في ركبها :

قال تعالى : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تبيهاً وإذا لأتيناهم من لدنا أجرأ عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً » (٣).

وقال سبحانه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (٤).

وصفة الإيمان هي التي جعلت رب العزة يتولى هداية من اتصفوا بها فيقول جل جلاله : « وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » (٥).

وشياطين الإنس تقف — دائماً — تصد عن هذا الصراط ولذلك قال شعيب لقومه : « ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً » (٦).

وهم في ذلك كشياطين الجن الذين قالوا بلسان إبليس : « فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لا آتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » (٧).

(١) سورة الأنعام ٦ / ٣٩ .

(٢) سورة النساء ٤ / ٦٨ .

(٣) سورة المائدة ٥ / ١٦٤

(٤) سورة الحج ٢٢ / ٥٤ .

(٥) سورة الأعراف ٧ / ١٦٤

(٦) سورة الأعراف ٧ / ١٦٤

(٧) سورة الأعراف ٧ / ١٦٤

ولهذا أخذ الله عهده على بنى آدم ألا يعبدوا الشيطان فينحرفوا عن طريق الله ولذلك يسأل سبحانه هؤلاء الضالين سؤال تفريع وتبكيث فيقول: ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون» (١).

ومن هنا كان الالتزام بهذا الطريق صعباً وشاقاً ويحتاج إلى علم رباني وصلوة وثيقة بالله يقول القرآن: «ويري الذين أتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد» (٢).

فجعل العلماء هم أصحاب الرؤية الواضحة لما أنزله الله على رسوله يروونه وحده هو الحق الذي لا شبهة فيه وهو الذي يرشد إلى طريق الله المستقيم.

وكانت أشق آية نزلت على رسول الله ﷺ: «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير» (٣).

يقول ابن عباس: «ما نزل على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية ولذا قال صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشيب، يا رسول الله؟ قال: «شيبتي هود وأخواتها» (٤).

وذلك لأن الاستقامة تكون بحسب المعرفة فمن كملت معرفته بمولاه عظم عنده أمره ونهيه فاذا سمع «كما أمرت» علم أنه مطالب باستقامة تليق بمعرفته بعظمة سيده وجلال مولاه.

ولأجل هذه المجاهدة التي تحتاج دائماً إلى فضل الله كلف الله المؤمنين أن

(١) سورة يس ٣٦/٦٠ — ٦٢ . (٢) سورة سبأ ٣٤/٦ .

(٣) سورة هود ١١/١١٢ .

(٤) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٧١١ ط الأولى بالمطبعة البهية المصرية .

يهتفوا من أعماقهم في كل صلاة : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » (١) .

وكان جزاء المستقيمين عظيماً عند الله قال سبحانه : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون زلا من غفور رحيم » (٢) .

فعرفة الله والاستقامة على هذا الطريق سبيل الوصول إلى هذا المقام الرفيع لأن ذلك هو الإسلام بكل ما فيه . . ولذلك سأل سفيان بن عبد الله رسول الله ﷺ فقال : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك؟ قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » (٣) .

والاستقامة دعوة الأنبياء والصالحين يستجيب لها من شاء الله هدايتهم ويلبي دعوتها الإنس والجن ولذلك يقول الله في القرآن : « إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (٤) .

ويقول في شأن الجن : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » (٥) .

وهي الاعتدال والكمال قال تعالى : « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم » (٦) .

(١) سورة الفاتحة ١ / ٧ . (٢) سورة فصلت ٤١ / ٣٠-٣٢ .

(٣) مسلم . (٤) سورة التكويد ٨١ / ٢٦-٢٩ .

(٥) سورة الأحقاف ٤٦ / ٢٩ ، ٣٠ . (٦) سورة الملك ٦٧ / ٢٢ .

وعندها يقف المؤمنون لا يتنازلون أمام ضغط الباطل وقوته وهم يصرخون في وجه الظالمين : « كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » (١) .

ويعلن رسول الله ﷺ أن هذا طريقه ويدعو إلى اتباعه فيقول : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

وقد أوضح رسول الله ﷺ حدود هذا الصراط في الحديث الذي رواه أحمد عن النواس بن سميان الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول : يأيتها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتعوجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فأنك إن تفتحه تلجه : فالصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله تعالى . والأبواب المفتحة محارم الله تعالى وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله عز وجل والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » (٢) .

وفي ذلك يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد (طرقات) وعن يساره جواد وهم رجال يدعون من مر بهم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط انتهى إلى الجنة ثم قرأ ابن مسعود : « وأن هذا صراطي مستقيماً . الآية » (٣) .

(١) سورة طه ١٠/١٣٥ .

(٢) رواه أحمد والحاكم .

(٣) تفسير الطبري ج ١٢ ص ٢٣٠ ، تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣٨ ،

٤ - كيف يصل الانسان إلى الاستقامة ؟

الاستقامة على طريق الله مطلب عزيز وصعب ولكنه يسير على من يسره الله عليه .

وتبدأ بتقويم الإنسان لجوارحه وتعديل ما يصدر عنها ووزنه يميزان الخوف والرجاء حتى تعتاد الخير وتستقيم على عمل البر والطاعة ، ثم إقامة القلب وتطهيره وتهذيبه وتنظيفه من الأخلاق السيئة والآفات الذميمة كالحقد والحسد والكبر والعجب والنفاق والرياء ويصل الإنسان بتطهير القلب وإحكام عمل الجوارح إلى الاستقامة فلا يصدر في حياته إلا عن أمر ربه ولا يعرف له سيداً ولا سنداً إلا إلهه ، ومتى اعتاد المرء ذلك في حياته وراقب الله في كل حاله أصبحت الاستقامة له سجية والخوف من الله له عادة ووصل إلى بر الأمان وكان مع من لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

يقول أحد العارفين بالله : الاستقامة : توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ويقين بلا تردد وتفويض بلا تدير . وهذا مقام عظيم لا يصل إليه إلا المجاهدون الأخيار .

ويقول آخر : الاستقامة : « اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج القويم » .

وقال ثالث : « الاستقامة ك مقام الشكر وهو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله من عبادة مولاه بما يستطيع على الأوجه الأقوم والطريق الأكمل » (١) .

(١) الأربعين حديثاً النووية بشرح النبراوي ص ١٣٧ .

٥ - سبل الشيطان طريق الضلال

لا يتضح الليل حتى يشرق النهار ولا تعرف قيمة الصحة حتى يذاق المرض ولا يدرك الغنى إلا إذا وجد الفقر . وكذلك الاستقامة لا يتزوق حلاوتها ولا يتنسم عبيرها إلا من رأى وعرف سبل الشيطان وأدرك أنها ضالة مضلة تؤدي إلى الحيرة والحسرة والشقاء .

فلاستقامة طريق واحد لا يضل فيه أحد ولا يلتوى هنا وهناك لأنه لا عوج فيه ، أما سبل الشيطان فإنها كثيرة متشعبة ، وربما كان هذا بعض ما نفهمه من أفراد كلمتي : الصراط والسبيل وجمع كلمة السبيل في قوله : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

وإذن ما هي سبل الشيطان ؟

يقول القرطبي نقلاً عن ابن عطية : « وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام ، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد ، قال مجاهد في قوله : ولا تتبعوا السبل قال : البدع .

ولفظ البدع عام يؤدي إلى مسالك شتى كلها ضلالات وكلها من تزوين الشيطان واستغلاله لهوى النفس وأمراضها مما لا يتنبه له إلى قلة من الناس .

« قال الأوزاعي : قال ابليس لأوليائه من أي شيء تأتون بني آدم ؟ فقالوا من كل شيء قال : فهل تأتونهم من قبل الاستغفار ؟ قالوا هيئات ذلك شيء قرن بالتوحيد . قال : لأبئن فيهم شيئاً لا يستغفرون الله منه ، قال : فبئ فيهم الأهواء .

وطريق النجاة منها هو التمسك بما كان عليه الرسول وأصحابه قال أبو العاتية : عليكم بالأمر الأول الذي كانوا عليه قبل أن يتفرقوا ، قال عاصم الأحول فحدثت به الحسن فقال : قد نصحك والله وصدقك .

وربما كان طريق البدع اختراع في الدين جر إليه الجهل بأن الزيادة في شعائر الإسلام ممكنة .

« رأى أبو موسى الأشعري قوما في أيديهم حصي في المسجد يعدون به التكبير والتهليل فجاء ابن مسعود وأخبره وذهبا إلى المسجد حيث القوم حلقا حلقا فوقف عليهم ابن مسعود فقال : ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟

قالوا : يا أبا عبد الرحمن حصي نعد به التكبير والتهليل والتسييح فقال : فعدوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألا يضيع من حسناتكم شيء . ويحكم يا أمة مجد ما أسرع هلكتكم !! أو مفتضحى باب ضلاله ؟

قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن . ما أردنا إلا الخير فقال : وكم من مرید للخير لا يصيبه » .

والأمر سهل ميسور : لا بد من ترك البدع فكلها ضلالات والاستماع إلى رسول الله يحدد طريق الله في وضوح .. روى ابن ماجة وغيره عن العرابض ابن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا : يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع !! فما تعهد إلينا ؟

فقال : قد تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك . من يعيش منكم فسيروا اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي .. عضوا عليها بالنواجذ وإياكم والأموال المحدثات فإن كل بدعة ضلالة وعليكم بالطاعة وإن عبدا حبشيا فإن المؤمن كالجمل الأنف (٢) حيثما قيد انقاد .

(١) الأنف : ككتف : المأنوف وهو الذي عقد الخشاش ألقه وهو لا يمتنع على قائده للوجع الذي به .

وطرق الشيطان متشعبة لا يحصيها العد ومنبعها : اتباع هوى النفس . .
قال تعالى : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي
القوم الظالمين ؟ » (١) .

وقال سبحانه : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه
وكيلاً » (٢) .

ومن أراد النجاة من هذه السبل كلها سار في سبيل واحد هو سبيل الله
وهو الذى أوضحه رسول الله ﷺ فيما يرويه ابن مسعود قال : خط لنا
رسول الله ﷺ خطاً ثم قال : هذه سبيل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه
وخطوطاً عن يساره ثم قال : هذه سبل على كل سبل منها شيطان يدعو إليها
ثم قرأ هذه الآية : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه » (٣) .

(١) سورة القصص ٢٨/٥٠ .

(٢) سورة الفرقان ٢٥/٤٣ .

(٣) ما جاء من الأحاديث وأقوال العلماء فى معنى سبل الشيطان نقلاً عن

القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ج ٧ ص ١٣٧ — ١٤٥ .

نظرات في الوصايا

- ١ — وأن هذا صراطى مستقيما :
هل هى الوصية العاشرة ؟
- ٢ — لماذا جاء ختام الآيات بهذا الترتيب :
لعلكم تعقلون ، لعلكم تذكرون ، لعلكم تتقون ؟
- ٣ — الوصايا العشر وما قيل فى فضلها ؟
- ٤ — مقارنة بين وصايا الإسلام وغيرها .
- ٥ — هذه الوصايا هى الطريق الوحيد لإنقاذ البشرية المعذبة .
- ٦ — الأمة الإسلامية مثال فريد ؟

١ - « وأن هذا صراطى مستقيماً .. هل هي الوصية العاشرة ؟ »

يرى أبو السعود أنها ليست الوصية العاشرة : فإنه قبل أن يذكر الآية وأن هذا صراطى مستقيماً قال : « وهذه أحكام عشرة لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار (١) » .

وكانه رأى أن لا بعد الكيل والميزان وصية واحدة بل وصيتين وتكون الاستقامة جامعة لكل هذه الأحكام العشرة لا وصية مستقلة .

إلا أن جمهور المفسرين يرى أنها من تمام العشرة وأن ما سبق تسع وصايا :

يقول أبو حيان - معللاً بحججه - لعلمكم تعقلون في الآية الأولى ، ولعلمكم تذكرون في الآية الثانية - « لما كانت الخمسة المذكورة قبل قوله « لعلمكم تعقلون » من الأمور الظاهرة الجلية مما يجب تعقلها وتفهمها ختمت بقوله « لعلمكم تعقلون » . ولما كانت هذه الأربعة خفية غامضة لا بد فيها من الإجتهد والذكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال ختمت بقوله « لعلمكم تذكرون (٢) » .

وهذا ما رآه الفخر الرازى حيث قال : « التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها والتكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية أمور خفية غامضة .. إلخ (٣) » .

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ١٤٧ .

(٢) الفتوحات الإلهية ج ٢ ص ١١٠ للعلامة الجمل .

(٣) الفخر الرازى ج ١٤ ص ١ .

والحق مع جمهور المفسرين فان الوفاء بالكيل والميزان لا يمكن أن يكون وصيتين ولعل هذا ما يفهم من توجيه الأمر لتوفيتهما معا حيث قال : سبحانه « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » .

وربما أوقع أبا السعود في هذا الوهم أن الصراط المستقيم عام فلا يمكن جعله وصية مستقلة . . ولكن : أليس العدل في القول عاماً بعد أن عرفنا أنه يتناول القول والفعل وأنه لا بد من الاعتدال في كل الأمور ؟؟ والوفاء بالعهد : أليس — كذلك — عاماً ؟؟ فتوحيد الله وبر الوالدين والمحافظة على النفس البشرية والبعد عن أكل مال اليتيم وتوفية الكيل والميزان والعدل في القول والعمل . كل ذلك من الوفاء بالعهد . ١١ فلا عجب أن ينتقل القرآن إلى وصية جامعة : هي وجوب اتباع صراط الله المستقيم والابتعاد عن سبل الشيطان .

٢ - لماذا جاء ختام الآيات بهذا الترتيب ؟

ختام الآيات الثلاث هكذا : لعلمكم تعقلون . . لعلمكم تذكرون . لعلمكم تتقون . فما السر في هذا الترتيب ؟ لعل ما ذكره أبو حيان والفخر الرازي يكشف لنا هذا السر . وقد سبق قولها ونحن نؤكد أن الأمر باتباع الصراط المستقيم هو الوصية العاشرة . وبعد أن بين أبو حيان سر ختام الآية الأولى بقوله تعالى : لعلمكم تعقلون والثانية بقوله تعالى : لعلمكم تذكرون . قال : « ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر تعالى باتباعه ونهى عن سيئات الطريق . ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاء النار . إذ إن من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية^(١) .

ولم لا ينجو النجاة الأبدية ويحصل على السعادة السرمدية من اتبع صراط الله المستقيم وقد عرفنا أن الإشارة في قوله تعالى : وأن هذا صراطي مستقيماً .

(١) الفتوحات الإلهية ج ٢ ص ١١٠ للعلامة الجمل .

إلى ما جاء في سورة الأنعام كلها؟ وهذا سر ختام هذه الوصايا بالتقوى .
فإن من التزم بما تحمله سورة الأنعام من هداية وإرشاد وصل إلى مرحلة
التقوى وهى المطلب الرفيع للإنسانية به تحيا في أمان وتصل إلى منازل السعداء .

ومن أسرار ختام هذه الوصايا بقوله — لعلمكم تتقون . ما قاله النسفي مبينا
سر هذا الترتيب : « ذكر أولاً تعقلون ، ثم تذكرون ، ثم تتقون لأنهم إذا
عقلوا تفكروا ثم تذكروا أى اتعظوا فاتقوا المحارم^(١) .

٣- الوصايا العشر - وما قيل في فضلها

هذه الوصايا الالهية جاءت بها كل الشرائع ونادت بها رسالات السماء على
مر الأجيال .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « هذه الآيات محكمات لم ينسخهن
شيء من جميع الكتب من عمل بهن دخل الجنة ومن كفر بهن دخل النار^(٢) .

وعن كعب الأحبار : « والذى نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول
شيء في التوراة^(٣) .

وعن ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي حدثنا يزيد بن هارون
حدثنا سفيان بن حسين عن الزهري عن أبي ادريس الخولاني عن عبادة بن
الصامت قال رسول الله ﷺ : أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم
تلا : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » حتى فرغ من ثلاث آيات .
ثم قال : فمن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله في
الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه
وإن شاء عفا عنه^(٤) .

(١) تفسير النسفي ج ٢ ص ٤١ (٢) الفخر الرازي ج ١٤ ص ٣

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٣٦ (٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩١

وقد روى عن ابن مسعود أنه قال : « من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ الذي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً .. إلى قوله : لعلمكم تتقون » (١) .

وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : « لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا وأبو بكر معه فوقف رسول الله ﷺ على منازل القوم ومضاربهم فسلم عليهم وردوا عليه السلام وكان في القوم مفروق بن عمرو وهانيء بن قبيصة والمنفى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان مفروق أغلب القوم لساناً وأوضحهم بياناً ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال له : إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فقال النبي ﷺ : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله وأن تؤوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد .. فقال له مفروق : وإلام تدعو — أيضاً — يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله ﷺ : قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم . الآيات الثلاث فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه .

فتلا رسول الله ﷺ : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. الآية » فقال له مفروق : دعوت والله يا قرشى إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وقال هانيء بن قبيصة : قد سمعت مقاتلك واستحسنيت قولك يا أخا قريش ويعجبني ما تكلمت به ، فبشرهم الرسول إن هم آمنوا ، يارض فارس وأنهار كسرى فقال له النعمان : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله ﷺ : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً » ثم نهض رسول الله ﷺ (١).

٤ - مقارنة بين وصايا الإسلام وغيرها؟

والوصايا العشر كما ذكر ابن عباس لم ينسخن شيء من جميع الكتب : وردت بها التوراة وجاء بها الإنجيل ولذلك قال الله عقبها : « ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » (٢).

ولكن أسلوب القرآن فريد في تربيته شامل لكل أدواء البشر لا يدانيه في إحاطته بخلجات النفوس كتاب وما ذلك إلا لأنه كتاب الإنسانية عامة ودينها الخالد إلى أن تنتهي هذه الحياة !!

وإذا أردنا أن نقارن بين وصايا الإسلام وغيرها من الوصايا في معتقدات غير المسلمين فهذه وصايا البوذية العشر تقول :

- ١ - لا تزهد روحاً .
- ٢ - لا تأخذ مالا تستحق .
- ٣ - لا تزني .
- ٤ - لا تكذب أو تغش أحداً .
- ٥ - لا تسكر .
- ٦ - كل باعتدال ولا تأكل شيئاً بعد الظهر .

(١) تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر محمود شلتوت ط الرابعة لدار القلم

ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٢) سورة الأنعام / ٦ / ١٥٤ ، ١٥٥ .

٧ - لا تشهد رقصاً ولا تسمع غناء أو تمثيلاً .

٨ - لا تلبس حلياً ولا تعطر ولا تتخذ زينة .

٩ - لا تم في فرش باذخة .

١٠ - لا تقبل ذهباً ولا فضة .

والوصايا الخمس الأولى واجبة على كل بوذي على الدوام ، والخمس الأخيرة واجبة الاتباع في أيام الصوم ، أما الرهبان فإن عليهم اتباع الوصايا كافة في سائر الأوقات (١) .

وهذه وصايا التوراة كما وردت في سفر الخروج واللاويين والتثنية . .
نقول التوراة :

لا يكن لك آلهة أخرى أمامي .

لا تصنع لنفسك آلهة منسبوكة .

لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا .

أكرم أباك وأمك .

لا تقتل .

لا تزني .

لا تسرق .

لا تشهد على قريبك شهادة الزور .

لا تشته بيت قريبك ولا شيئاً مما لقريبك (٢) .

١١ من مقال للأستاذ أحمد حسن بمجلة الوعي الإسلامي بعنوان :

لماذا الإسلام . عدد صفر ١٣٨٨ هـ .

(٢) سفر الخروج الفصل العشرين .

لا تقبل خيراً كاذباً .

لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر .

لا تحاب مع المسكين في دعواه^(١) .

« افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك^(٢) .

» لا تضطهد القريب وتضايقه .

لا تسيء إلى أرملة ما ولا يتيم^(٣) .

لا ترتكبوا جوراً في القضاء^(٤) .

ابتعد عن كلام الكذب^(٥) .

لا تنتقم^(٦) .

« لا ترتكبوا الا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل^(٧) .

لا تحقد على أبناء شعبك .

كن قديساً طاهراً .

تحب قريبك كمنفسك^(٨) .

أما تعاليم الإنجيل ووصاياهم فقد وردت في إنجيل متي وهي تقول :

طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات .

(١) سفر الخروج ٢٣ : ٣٤، ٢٤١ .

(٢) سفر التثنية ١٥ : ١١ .

(٣) سفر الخروج ٢٢ : ٢٢، ٢١، ٢٢٤ .

(٤) لا و بين ١٩ : ١٥ (٥) خروج ٢٣ : ٧ .

(٦) لا و بين ١٩ : ١١ (٧) لا و بين ١٩ : ٣٥ .

(٨) لا و بين ١٩ : ١٨ .

طوبى للحزاني لأنهم يتعزون .

طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض .

طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون .

طوبى للأتقياء القلب .

طوبى لصانعي السلام .

طوبى للمطرودين من أجل البر .

طوبى للرحماء لأنهم يرحمون .

ليس حسب « لا تقتل » وإنما لا تغضب من أخيك وتقول له « رقا »
أو « يا أحمق » .

فاذا قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك فترك
هناك قربانك واذهب أولا إصطلح مع أخيك .

قد سمعتم أنه قيل للقديس « لا تزن » وأما أنا فأقول لكم إن كل من
ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنا بها في قلبه .

قد سمعتم . . لا تحنث وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة .

سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم : أحبوا
أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضكم .

وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم .

إن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل تصنعون ؟

أعط الذى يطلب منك ولا قول ظهرك لمن يريد أن يقترض منك .

احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس .

إن غفرتم لناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوي .
لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء .
لا يقدر أحد أن يخدم سيدين .
لا تهتموا لحياتكم . . انظروا إلى طيور السماء وأبوكم السماوي يقوتها .
لماذا تنظر إلى القرى الذي في عين أخيك وأما الخشبية التي في عينك فلا
تفطن لها .

فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أتم أيضاً بهم .
أدخلوا من الباب الضيق (١) .

هذه وصايا البوذية واليهودية والمسيحية . وكما تتضاءل أمام وصايا القرآن
الذي عرض وصاياه في أسلوب أخذ وطريقة فذة وحمل في ثناياها هذا العرض
ما أجمعت عليه رسالات السماء وما ارتضته الأذواق والفطر المستقيمة ولكنه
يعرض كل وصية في موضعها المناسب تارة ويجمعها في إطارها العظيم تارة
أخرى كما هو واضح في وصايا سورة الأنعام .

ولو أردنا استقصاء الوصايا في كتاب الله لنقارن بينها وبين كل وصية
في الديانات الثلاث لطلال بنا المقام والأمر متروك — إذن — لفطنة القارئ .
فانه سيجد في كتاب الله دليلاً على تفوق هذا القرآن على كل هذه التعاليم وكما
قال الحق جل جلاله : وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من
الكتاب ومهيماً عليه (٢) .

نعم أنزل الله التوراة والإنجيل فيهما هدى ونور وأدى كل كتاب منهما
مهمة خاصة في إرشاد قطاع من الإنسانية إلى طريق الله ولكن هذا القرآن

(١) كما قال تعالى : فلا أقبحم العقبة . [البلد ١١/٩٠] .

(٢) سورة المائدة ٤٨/٥ .

دستور الحياة والأحياء إلى أن تنتهى تلك الحياة أتى بوصاياها كما أتى بكل تعاليمه ومبادئه قفزة في التاريخ البشرى لا يدانيه كتاب سابق ولا يصل إلى شأوه وعظمته تشريع آخر .

٥ - هذه الوصايا هي الطريق الوحيد لإنقاذ البشرية المعذبة

والإنسانية الحائرة ما أحوجها إلى هذه المبادئ السامية . إنها كالطائر الذى يحاول أن يطير بأحد جناحيه فلا يستطيع . لقد أخذت إلى الأرض واتبعت أهواءها فكان مصيرها هذا العناء وذلك العذاب والضياع وصدق الله إذ يقول : « واتل عليهم نبأ الذى آتينا آياتنا فانسخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١) .

لقد وصلت الإنسانية في تسخيرها للطبيعة وسيطرتها على كثير من أسرار الحياة مبلغاً لم تكن تحلم به ولكنها — للأسف — تراجعت خطوات قاتلة إلى الوراء في إيمانها وعقيدتها ونظام حياتها وتركت أمر دنياها فوضى لا تحكمه إلا قوانين البشر تلك التي ثبت — بالتجربة — قصورها وفسادها بل وضررها الذى أزعج العالم كله ونشر بين جنبيه شقاء وتعاسة فانطلق يبحث عن علاج لأمراضه في حانات الخمر والدعارة وإرخاء العنان لاشباع الشهوات فاذا بالأمر يزداد خطراً . وذلك أن العالم قد استجاب لنداء الشياطين وسار في متاهات الباطل فتوزعت السبل ومزقته الأهواء فابتعد عن مصدر النور الإلهي وعاش في ظلام حالك . ولن يخرج من هذا الظلام أبداً إلا بتطبيق هذه التعاليم والتزام تلك الوصايا فهي جامعة للخير كله وأساس الإصلاح العالمى الذى عاشته

الإنسانية دهرأ طويلاً حين عرفت هذا الكتاب العظيم « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض » (١).

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » (٢).

٦ - الأمة الإسلامية مثال فريد ؟

ومالنا نبعد بعيداً وهذه الجاهلية التي كانت تحياها الأسرة العالمية : من أنقذها منها ؟

وكيف تحولت هذه البلاد في أنحاء الأرض من عبدة أوثان وعبدة بشر وكواكب إلى عبيد لله وحده ؟

وكيف عزت هذه البلاد وارتقت مجتمعاتها وسمت في حضارتها ومدنيتها إلى مكانة رفيعة هي حضارة هذا الدين ومدنية هذا الإسلام !!

وأين هذه الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ??

إن الأمة التي حملت راية الإسلام وتمثلت هذه الوصايا في حسنها ووجدانها وجعلتها دستوراً لحياتها هزت عرش كسرى وقيصر فخر عرشهما تحت أقدامهما صاغراً مستسلماً فأنقذت هذه الشعوب كلها في الشرق والغرب من ظلام الباطل إلى نور الحق المبين وتركت أمم الأرض تشعر بالحرية والكرامة وتستظل بظل هذا الدين .. وأمتنا التي تشرفت بالانتساب لهذا الإسلام يمكن

(١) سورة إبراهيم ١٤ / ٢٤١ . (٢) سورة النساء ٤ / ١٧٣ ، ١٧٤ .

أن تقود ركب الإنسانية الحائر وتدله على الطريق إذا مسارت هذه الأمة على المنهج الأول وتلاقت مع كتاب الله في شوق وحنين فلامس منها شغاف القلوب فبعث فيها الأرواح المتعطشة إلى حياة إسلامية نظيفة فتعبد الله ولا تذل لسواه وتسد منافذ الفواحش فلا تقربها أبداً ، وتسودها عاطفة التراحم والتواصل والأخاء وتلتزم بالعدالة في القول والعمل ، والوفاء بكل ما في هذا الوفاء من معان خالدة وتعصم بصراط الله المستقيم فلا تحيد عنه .. وحينئذ تنطلق من عقالها وتنهض من كبوتها وتتولى زمام البشرية فتهدى إلى ربها وتضل بها إلى شاطئ الأمان والسلام .

وهذا واجبها فان قامت به ظفرت بالسعادة والفضل وإن كانت الأخرى فانا نسأل الله السلامة والعافية :

« يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » (١) .

فاللهم هب لنا من هذا الفضل . و اشرح الصدور للعمل بكتابك فان ذلك طريق النجاة وأنت ياربى على ماتشاء قدير وأنت بالإجابة جدير . .
وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ...

أهم المراجع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : تفسير القرآن الكريم .

١ - تفسير أبي السعود : انسمي : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود : محمد بن محمد العبادي ٨٩٦ - ٩٥١ هـ ط صبيح .

٢ - تفسير البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل - وبهامشة تفسير الجلالين لعبد الله بن عمر البيضاوي المتوفى سنة ٧٩١ هـ . ط الحلبي - الطبعة الأولى ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

٣ - تفسير ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء : اسماعيل بن كثير القرشي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . ط دار إحياء الكتب العربية .

٤ - تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل أي القرآن :

لأبي جعفر : محمد بن جرير الطبري ٢٢٤ - ٣١٠ هـ - حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر - ط دار المعارف بمصر .

٥ - القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي :

ط دار الكتب ٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م - الطبعة الثانية .

٦ - حاشية الجمل : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق

الخفية تأليف سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل ط حجازي بالقاهرة وبهامش كتابان : تفسير الجلالين وإملاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن .

٧ — الكشف : عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :

لأبي القاسم جار الله : محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ٤٦٧ —
٥٣٨ هـ ط عيسى الحلبي ١٣٦٧ هـ — ١٧٤٨ م

٨ — مفاتيح الغيب للامام فخر الدين : محمد الرازي . ط الأولى بالمطبعة
البهية المصرية ١٩٣٨ م .

تالفاً — مراجع عامة :

٩ — إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ط الحلبي .

١٠ — الأربعين حديثاً النووي بشرح النبراوي ط الزيني للطباعة والنشر .

١١ — الإسلام وتنظيم العلاقات الإنسانية للاستاذ محمد اللافي شرعان
ط الأولى . دار الطباعة المحمدية .

١٢ — الاصلاح المنشود للأسرة للأستاذ الشرباصي الحسين ط الثانية .
شركة الطباعة الفنية المتحدة .

١٣ — حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة للشيخ
محمد الغزالي ط الأولى ١٩٦٣ بمطبعة السعادة .

١٤ — خلق المسلم : للشيخ محمد الغزالي ط الرابعة طبع ونشر دار الكتب
الحديثة بمصر .

١٥ — رياض الصالحين للنووي ط صبيح .

١٦ — هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ط السادسة ١٩٥٨ — المطبعة
العثمانية المصرية .

١٧ — الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام للعقاد ط دار الهلال .

رابعاً — مراجع لغوية :

١٨ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضعه محمد فؤاد عبد الباقي .
ط الشعب .

١٩ — القاموس المحيط : للفيروز آبادي . ط الأولى ، بالمطبعة الحسينية
المصرية . ١٣٣٠ هـ .

٢٠ — مختار الصحاح : للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر
الرازي من كتاب الصحاح للإمام أبي نصر اسماعيل بن حماد
الجوهري — ط المطبعة الأميرية ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ .

(تم بحمد الله)

وقعت بعض الأخطاء أثناء الطبع

أرجو تصحيحها قبل قراءة هذا الكتاب

الصواب	الخطأ	السطر	ص
الفوز المبين	الفوز العظيم	٢١	٤
صاحب الحكمة	فهو الحكمة	٢٤	٤
أن الذي أنزل	أن أنزل	١٥	٥
وهم كاذبون في إدعائهم ولوردوا	وهم كاذبون اعانهم فلوردوا	١٨	٥
نعقل	تفعل	١	٦
رتيب	رتب	١٥	٦
الوحدانية	الوجدانية	٦	٧
وجاء به	وجاد به	٢٣	٧
يحسه	يحسه	٩	٩
شاعة	شفاعة	٧	١٢
نعم هو مأمور	نعم مأمور	٧	١٣
وإن أطعمتموهم	إن أطعمتموهم	١٨	١٣
يعلقون	يعقلون	٤	١٤
ومن وراءه	ومن ورائه	٧	١٥
مع الآيات	ومن الآيات	٢٣	١٥
كل ذى ظفر	كل ظفر	١٩	١٧
قضيتان لا تنفصلان	قضيتان لا ينفصلان	١٢	١٨
بهذا لنصل	بهذا الفصل	٣	١٩
تعليم	تعليم	١٦	١٩
ويهددهم	ويهدوهم	١٧	١٩
متعلق	معلق	٨	٢٧
فجمعت	فجمعة	١٧	٢٨
تقتضي	تقتضي	٥	٢٩
وشركة	وشركة	٦	٣٣
بالأمن	بالأمر	١٦	٣٦

الصواب	المخطأ	السطر	ص
يذبت لكم به	يذبت به	٣	٣٨
الرسول	الرسول	٢٤	٣٨
أوحينا	أوصينا	١٧	٣٩
المسيح عيسى بن مريم	المسيح بن مريم	١٠	٤٠
أورده	أورده	١٨	٤١
لشركائنا	لشركائنا	١٠	٤٢
سفها	سعتها	٢٠	٤٢
يدعو	يدعوا	٧	٤٣
لأنذركم	لأنذكم	٩	٤٣
لا تشرك	تشرك	٥	٤٤
(١)	(٢)	٣	٤٥
الفاسقين» (٢)	الفاسقين»	٤	٤٥
ترك	فترك	١٤	٤٥
تشمعل	تشمعل	١٦	٤٥
تطلب	مطلب	٤	٤٦
التسليم	التسليم	٢٢	٤٦
إذ	إذا	٩	٤٧
المشترعون	المشترعون	٥	٤٨
أهواءهم	أهواءهم	٦	٤٨
بفتح الباء وضم	بفتح الباء وضم	٣	٥٠
صبغة	صبغة	٧	٥٠
ما واصلنا	ما واصلنا	١٤	٥٠
الجازم	الجازم	١٥	٥٩
الذلة	الذلة	٢١	٥٩
تحتي	تمنى	١٥	٦١
حمار .. مل	حمار .. أمل	٧	٦٤
الأنبياء	الأنبياء	٢	٦٩
الذكور	الأنبياء	١٧	٧١
للذكور	للأنبياء	١٨	٧١
وإذا كان رزق	وإذا رزق	٩	٧٢

الصواب	الخطأ	السطر	ص
مريضة	مريضة	١١	٧٢
لقتلهم	لنتكلم	١	٧٣
وشهوده	ومشورة	٧	٧٣
كخليفة في هذه	كخليفة لله على هذه	٥	٧٤
نرزقك	نرزقكم	١٩	٧٤
البيخلاء بخلمهم بما	البيخلاء بما	٦	٧٥
ليس منيها	منيها	٢٠	٨٠
أصغنا السمع	أصغنا السمع	٤	٨٤
يشتد قبجه	يشتد قيمه	١٦	٨٧
ومن يعص	ومن يعصي	٥	٨٨
كما ساقه	كما سافه	١١	٨٨
الأولي	الأول	١٢	٨٨
بفاحشة	لفاحشة	١٦	٨٨
تفسير أبي السعود ج٢ ص ١٤٦	سورة النساء ٢٥/٤	٥٣	٨٩
وأكد	وأكثر	١٨	٩٠
هي التي تربت	هل تربت	٦	٩١
وحفظته	وحفظه	٤	٩٥
والفصال	والنصال	١٠	٩٨
ذلك .. الجهاد	الجهاد	١	٩٩
من مسألتها	من مسألتها	٥	٩٩
ويرتع	ويرفع	٤	١٠١
ويقتل	ويقتل	١١	١٠٧
فلنا	قلنا	١٦	١٠٧
أفرده	أفراده	١٩	١٠٧
وملائكته	وملائكة	١	١٠٨
إلا حال	إلا حالي	٩	١٠٨
وزوجه	وزوجة	٥	١٠٩
وتشد إليها	وتشد الرجال	١٨	١١١
أحسبه	أحبه	٧	١١٢
كفاراً	كناراً	٩	١١٢

الصواب	الخطأ	السطر	ص
يربط	يزبط	١٧	١١٢
شعور	شعورا	١٣	١١٣
حين	حتي	١٧	١١٥
لم تعص	لم تعصى	١٩	١١٥
في الهامش (١) سورة المائدة ٥/٣٣	(١) في الهامش أبو السعود الخ	٦	١١٨
الأمّن (٢)	الأمّن	١٥	١١٨
تتقون (٣)	تتقون ()	٢٢	١١٨
(٢) أبو السعود .	(١) أبو السعود	٢٣	١١٨
(٣) سورة البقرة .	(٢) سورة البقرة	٢٣	١١٨
شيئا	شيء	١٣	١١٩
المسلم	السلم	٧	١٢٠
مع	معى	١٧	١٢١
مجداً	مجد	٨	١٢٢
لرسوله	رسوله	١٢	١٢٢
مصدقا	مصدقا	١٦	١٢٣
ويبلغوا	ويبلغون	٨	١٢٤
القادسية	الفارسية	١٢	١٢٤
كل يتم كبحمد	كل كبحمد	٤	١٣٠
على أنه	أنه	١٣	١٣٠
يتيمته	يتيمة	٨	١٣١
فيقطع	فيقطع	٢	١٣٤
متسع	متسعا	٢٢	١٣٥
الولي	المولى	١٩	١٣٧
تفيد	تغير	٩	١٣٩
الأخير	الأخير	١٨	١٣٩
كأنك	كأنك	٨	١٤٠
واحدة	واحدة	٩	١٤٠
يتمه	يتيمة	٦	١٤١
يشاء ويبعث	يشأ ويبعث	٣	١٤٢
العدل	العدل	٥	١٤٢

الصواب	الخطأ	السطر	ص
وليخش	وليحسبن	١٠	١٤٣
أو	أم	١	١٤٦
فلا تقهر (٣)	فلا تقهر	٩	١٤٧
المسكين» (٤)	المسكين (٣)»	١٠	١٤٧
يقول	لقول	١٨	١٥٣
وقعدوا	وتعدوا	٩	٢٥٧
نصح	نصحا	٢٠	١٥٧
يغنوا	يقنوا	٧	١٥٨
تطيب به نفسه	تطيب نفسه	١٣	١٥٩
عن أن تطيب	عن تطيب	١٥	١٥٩
الحشو والزيادة	الحشود الزيادة	٨	١٦٤
ويستسهل	ويستهل	١	١٦٨
لذلك	وذلك	١	١٦٩
كذابا	كذبا	٥	١٦٩
وعجزه	وعجزه	١٨	١٦٩
الأمانات	الآمانات	٩	١٧٠
النصراني	للنصراني	١٢	١٧٢
حقها	حقاً	٢	١٧٩
يتذكر	يتذكرون	٩	١٨٢
تحتاج إلى	إلى	٦	١٨٦
بعهدهم	بعدهم	٩	١٨٦
الإيمان	الأيمن	٢٢	١٩٩
على	عملي	١٣	٢٠٢
لا يتذوق	لا يذوق	٣	٢٠٨
إلا قلة	إلى قلة	١٧	٢٠٨
يدعو	يدعوا	٩	٢١٠
لا يعد	لا يعد	٦	٢١٣
لأتقياء	للأتقياء	٤	٢٢٠
قول	قول	١٩	٢٢٠